ذلك إن التاريخ يشهد، ويقر أن ما كتبه علماء التفسير، والحديث واللغة، والفلسفة، وغيرها من أهل آسيا الوسطى، وما وراء النهر يعد العماد الرئيسى لما بين يدى العالم الإسلامى كله فى سائر علوم الدين، والشريعة والمدنية[١].

ولذا لم يجد النظام الشيوعى بداً من إدخال، واستحداث أساليب ثقافية جديدة تنشر الفكر الماركسى الإلحادى، ومن هذا المنطلق بدأ على الصعيد العملى بتغيير اللغة القومية إلى اللغة الروسية فى كل الجمهوريات الخاضعة لحكم الاتحاد السوفيتى السابق، ثم أظهر «لينين» فى مخططه ما يسمى بالثورة الثقافية، والتى تتضمن فى ظاهرها تعميم التعليم والتثقيف لكل الفلاحين العمال فى المجتمعات الزراعية والصناعية وعلى المستوى العام، ولكن فى باطنها هو التثقيف بالفكر الشيوعى الماركسى، ولكل مبادئه، ومحاربة أى أفكار أو مبادئ تخالف ذلك لخلق مجتمع اشتراكى[٢].

وفى سياق هذا الموضوع نوضح أن السلطات الشيوعية اتخذت عدة أساليب مادية وثقافية لطمس الهوية الإسلامية، منها ما تقوم به الحكومة الشيوعية السوفيتية مباشرة ومنها ما تقدمه المؤسسات، والهيئات، والأفراد غير الحكومية بدعم، وتأييد من الحكومة الشيوعية.

فمن الممارسات التى تقوم بها الحكومة الشيوعية بشكل مباشر، محاربة الأديان والإعلان عن الإلحاد الصريح بالقول، والفعل، ولما كان الدين الإسلامى هو مازال وإلى ما شاء الله دين الحق، فقد اعتبره الشيوعيون عدوهم اللدود لأنه دين يستطيع أن يلبى مطالب الجماهيرفى كل زمان ومكان ولا يتصادم مع العقل، ولا التقدم، بل يدعو للمساواة، والتقدم، والرقى، ومما جعلهم يتبعون كل الوسائل، والسبل للقضاء عليه، وعلى الهوية الإسلامية بشكل عام، وبدأوا ذلك بعدة إجراءات مادية، وأخرى فى مجال الأدب، والفن، والثقافة هنا تجدر الإشارة إلى قيام السلطات الشيوعية بوضع القيود، وبث الفكر الشيوعى من خلال عدة محاور:

أولاً: الإجراءات المادية[٣]:

١- تقييد ممارسة الشعائر الدينية مع منح حرية محاربة الدين الإسلامى،

---

(١) إسلام كريموف - أوزبكستان على طريق الانبعاث الروحى - مرجع سابق ص١٦١

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٥

(٣) علاء الدين المنوفى - مصدر سابق، ص٨٦

٢- والأدب الروسى غنى بهذا النوع من المؤلفات التى تخدم فى النهاية الغرض الأساسى، وهو ما يسمى بالنصر للواقعية الاشتراكية، وهو هدف وضعته الأنظمة الشيوعية ليكون مكونا مكملا للنظام الماركسى فى نشر مبادئه، وتعاليمه، ومحاولة فهم هذه التعاليم، والمبادئ من قبل الشعوب حتى تصبح جزءا من نسيجهم الفكرى.

٣- وانطوى الفكر الشيوعى كذلك من الناحية الأدبية على تربية الطفل، وتنشئته، وقد كان اهتمام الشيوعيين بتنشئة الطفل تنشئة خاصة بحيث يكون جزءا من عملية التطور الفكرى والذى يهدف له النظام القائم(١).

٤- ولذا خرجت عدة نظريات عن التنشئة السليمة للطفل، وما ينبغى أن يكون عليه وما يمكن أن يتلقاه من سلوك أو معلومات تخدم عملية التربية على الأسلوب، والسلوك الذين يرغب فيها النظام الماركسى حتى يخرج جيل من الشباب معداً ليكونوا بمثابة الجنود والحراس للنظام الشيوعى.

٥- وإن كانت إشارات المتخصصين فى هذا المجال تنطوى على ضرورة أن الطفل يولد على البراءة، والطيبة فلابد للمجتمع من تغذية حقيقة الخير، والجمال وخلق مجال التنافس بين الخير، والشر حتى يخرج إنساناً سوى يخدم نفسه ووطنه.

٦- وفى هذا السياق تقوم السلطات الشيوعية بتعليم الأطفال الماديات المجردة دون الروحانيات أو الألوهيات فتعتبر العالم موجوداً عن طريق التطور المادى، وليس هناك إله موجود يقوم على حفظه.

٧- فالمادية، والإلحادية تقوم على إنكار وجود إله خالق لهذا العالم، وإنكار الرسل، والكتب المنزلة، والملائكة، وإنكار كل القيم المستوحاة من الإيمان بالله.

٨- ذلك كله هو الاساس الأول، واللبنة الأساسية فى بناء الشيوعية، فلا تجتمع الشيوعية مع الإيمان بالله، ولذا يقول (لينين) إن الدين هو أفيونة الشعوب، وهو نوع من الخمر الروحية، يغرق فيها عبيد الرأسمالية، والبحث عن إله لا فائدة فيه، ومن العبث البحث عن شئ لا وجود له، ولابد من محاربة الدين(٢).

---

(١) ليف تولستوى - كتابات تربوية - موسكو - دار التقدم سنة ١٩٨٩، ص٢٤٦

(٢) فالكون لافرين - تعريف بالرواية الروسية - مصدر سابق، ص٢٥٦

الشيوعية، والتركيز على الأطفال لدراسة هذه المناهج لخلق أجيال تقنع، وتؤمن بالإلحاد فكرة، وعقيدة وأسلوب حياة[1].

٨- تعميم دراسة الاشتراكية فى كل المعاهد والجامعات، والمدارس فى جميع مراحل التعليم مع محاصرة العلوم الدينية الإسلامية فى مجال التعليم حتى لا تهدد الأفكار الاشتراكية الشيوعية.

٩- الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد، وتحطيم أى قيم دينية باعتبار أن الدين يهدد الاشتراكية والأنظمة الشيوعية.

فإذا كانت هذه هى الإجراءات المادية التى استطاع النظام الشيوعى فرضها على مسلمى آسيا الوسطى فإن الإجراءات فى المجالات الأخرى هى:

ثانيا: محور بث الفكر الشيوعى من خلال الأدب والفن والثقافة:

١- ففى مجال الأدب اتجهت الرواية الروسية إلى سرد قصص أو روايات تقوم على الإثارة الجنسية فى أسلوب أدبى مشوق لصور التحرش الجنسى، ومفردات الإثارة، كما هو الحال فى كتابات «إيفان تشيغرينوف» الذى يصور فى روايته ثمن الدم، وهى من روايات الأدب الروسى الذى يصور دخول الجنود الألمان فى الحرب العالمية الثانية للأراضى الروسية، ولم يحترموا كرامة الرجال أو شرف النساء، وأصبحت معسكراتهم هى مراكز الحكم، والتحكم فى البلاد، ثم يصور من خلال ذلك تحرش الجنود الألمان، بالنساء الروسيات مع ذكر كل مفردات الإثارة الجنسية التى تجعل مثل هذه الأعمال الأدبية مشوقة تماما لقطاع كبير من الشباب[2].

وهناك كتاب آخرون أمثال: الكسى ن - تولستوى كيسلياكوف - رومانوف وغيرهم، سارو على نفس النهج، والأسلوب، وأصبحوا يقدمون ما يعرف بالمخدرات الثقافية، وليس هناك ما يحتم الاستطراد فى الاستشهاد بروايات أخرى أو بمؤلفين آخرين، فقد أصبح من اليقين أن الأدب الروسى مع كل التقلبات التى اجتازها قد كسب أرضاً جديدة فى نفوس الشباب، والسواد الأعظم من قطاع العمال الكادحين الذين يرون فى مثل هذه الأعمال متنفساً عن رغباتهم المكبوتة نتيجة عنائهم فى العمل الدائم المستمر.

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٠

(٢) ايفان تشيغرينوف - ثمن الدم - الاتحاد السوفيتى - طشقند - دار رادوغا سنة ١٩٨٦، ص٧٧

فأصبحت القصص الأدبية المشوقة كفيلة بتوجيه الشباب أكثر من توجيه الأسرة، لما يخدم الفكر الاشتراكى الماركسى الذى يقوم على محاربة الأديان.

وإذا كان هذا الاتجاه هو المسيطر على الأدب الروسى فإن الاتجاه نفسه أصبح مسيطراً على كافة الفنون الأخرى، كالمسرح، والموسيقى، والباليه، والسينما، فقد اهتم الشيوعيون بكل أنواع الفنون لخدمة مذهبهم الإلحادى، فشجعوا الفتيان، والفتيات على ارتياد المعاهد التى أعدت خصيصاً لتعليم هذه الفنون خاصة فى رقص الباليه، ومعاهد الفن هذه لا تعنى إلا الفساد بكل معنى الكلمة، الفساد بين الشباب بعضهم البعض، والفساد بين الشباب والأسر المختلفة.

وحين نجد أن الأفلام المثيرة التى يعتبرها الشباب، وقطاع العمال متنفسا لكبته ورغباته المحمومة حتى أصبحت مخدرات أدبية لا غنى عنها للمجتمع، وأصبحت السينما والتليفزيون قاسماً مشتركاً فى الترويج لهذا الفكر[1].

وقد أنشئت آلاف المعاهد لتعليم الفنون المختلفة من باليه وغيره، ويدخل إليها عشرات الألوف من الشباب، والشابات حيث يعيشون عيشة مختلطة، لا فرق فيها بين فتى، وفتاة، وهذه من وسائل الرذيلة المقصودة من النظام الشيوعى لتحطيم قيم الأسرة وقيودها الدينية، وإفساد الشباب، والقضاء على معنى الدين فى النفوس، والمقصود هنا على وجه الخصوص هو الأسرة المسلمة، والشباب المسلم ناهيك عن الفرق الموسيقية، ومعاهد الموسيقى، ومئات المعاهد التى تقوم بهذه المهمة، وبالطبع كل هذه الوسائل لخدمة التوجه الاشتراكى[2].

ولزيادة حماس الشباب نحو الإقبال على هذه المعاهد، والمسارح، والفنون، تقوم الحكومة الروسية بإرسال الطلبة المتفوقين إلى موسكو لاستكمال تعليمهم العالى فى هذه الفنون، وباقى الخريجين يعملون فى شركات أجنبية لتصوير الأفلام الإباحية، خاصة الفتيات الجميلات منهن، ولا فرق هنا بين مسلمة، وغير مسلمة، فالجميع عندما يذهبون إلى موسكو يعيشون فى بيوت الشباب عيشة مشتركة وأول ما يتعلمه هؤلاء الشباب والشابات هو إقامة علاقات مشتركة بين الجنسين لتأكيد الصداقة بين الجمهوريات السوفيتية المختلفة، ولإثبات الصداقة، والمحبة بين الشعوب، وطرح الأفكار الموروثة البالية، وهذا ما أوحى به علماء النفس الشيوعيون.

---

(١) أحمد رائف - مستقبل الإسلام فى روسيا وما وراء النهر - مصدر سابق، ص٤٣

(٢) المرجع السابق، ص٤٤

ومن هذا المنطلق كانت تحركات النظام الشيوعى، فأخذت تنفذ خططا محكمة لمحاربة الأديان ولاسيما الدين الإسلامى، الذى يشكل عقبة فى انتشار الفكر الاشتراكى لخصائص الإسلام الذاتية فيه لا لتمسك المسلمين به أو ابتعادهم عنه.

ونجد أن للنظام الشيوعى خططاً، وأساليب لنشر فكرة الشيوعية، وذلك باستمالة بعض الكتاب لتقدم أقلامهم فيما يخدم الفكر الشيوعى، ويقلل من قدر الدين الإسلامى.

وليس أدل على ذلك من الكتاب الذى بين أيدينا، والمعنون «صدر الدين عينى - صفحات عن حياتى - مختار أويزروف» طلقة فى الجبال[1].

ويحمل الكتاب فى طياته ما يؤلم النفس المسلمة فيظهر فى بعض صفحاته قيام بعض ابناء الشعب التركستانى بالتعاون مع الروس، وخيانة وطنهم، وقضيتهم بل إن صدر الدين عينى[2] من خلال السطور التى كتبها يتهكم على الدين الإسلامى.

وعلى هذا المنوال سار بعض الكتاب المسلمين، وبتأييد من السلطات الشيوعية على الوقوف بجانب الشيوعية ضد أبناء وطنهم ودينهم.

وهذا هو مخطط شيوعى يهدف فى النهاية إلى إخضاع، وضم الصفوة المثقفة من أبناء الشعب التركستانى بالمعسكر الشيوعى، وتأييد أفكاره، ومبادئه وإن كانت تتعارض مع الفكر الإسلامى.

وإن كنا نتحدث عن مجال الأدب فلا توجد أمة قام الأدب والقصة بصفة خاصة فى حياتها بدور أكثر فاعلية من الدور الذى قام به الأدب الروسى فى العهدين القيصرى والشيوعى، وخاصة بعد أن زادت أهمية الأدب، والقصة بعد التغير الكلى الذى أحدثته ثورة ١٩١٧م فى المجتمع الروسى إذ أصبح الأدب عاملا اجتماعيا مهماً يسير فى اتجاه سير النظام الحاكم، وهذاالنظام يهدف إلى بث الفكر الاشتراكى، ومحاربة الأديان ولاسيما الدين الإسلامى، من خلال التأثير على الشباب، وتقديم ما يسمى بالمخدرات الأدبية وهى القصص، والروايات التى تحوى الإثارة الجنسية، المتعة التى يميل إليها جموع الشباب، وعلى ذلك فإن الأدب الروسى فى فترة الحكم الشيوعى كان له تأثير فعَّال فى توجيه سلوك الشباب الغرائزى، والبعد به عن التمسك بالمعتقدات الدينية والمحاذير الأسرية،

---

(١) صدر الدين عينى - أعلام الأدب الروسى - موسكو - دار التقدم سنة ١٩٨٠.

(٢) هو كاتب مسلم تركستانى تعامل مع النظام الشيوعى ضد الإسلام وأصبح من أعوانه ضد أبناء شعبه.

ثم تأتى ثقافة الأمة أو الجماعة بشكل عام ممثلة فى العادات، والتقاليد، وجماع السلوك، وارتباط ذلك بالمعارف، والعلوم مع وجود المعتقد الدينى كعامل فعال، ورئيسى فى وضع هذا السلوك وتحديد هذه المعارف، ومن ثم تكون هذه الثقافة هى مجموع المعارف، والسلوك الحياتى، والدينى.

ومن ثم فالثقافة هى نمط الحياة، وطريقة التفكير، والتفسير الملائم لكل ما هو موجود، وقد تنتسب الثقافة لكيان دينى مثل الثقافة الإسلامية وغيرها، وقد تنتسب للشعوب، والجماعات مثل الثقافة العربية أو الفرنسية أو الأوزبكية.

وقد لاحظنا أن النظام الشيوعى استطاع بمهارة تامة، وعن طريق علمائه المتخصصين أن يسيطروا على السلوك البشرى لمسلمى آسيا الوسطى، ابتداء من طريقة تناول الطعام، واللبس إلى كافة نواحى الأمور الحياتية، حتى استطاع أن يوجهها التوجيه الذى يرغبه، ويخدم مخططاته.

ولذا، وبعد أن انهار الاتحاد السوفيتى نجد أن مسلمى آسيا الوسطى بحاجة ماسة لجهود العالم الإسلامى بمد يد العون المادى، والمعنوى وإرسال الكتب، والمطبوعات الإسلامية التى تعلمهم أمور دينهم، ولا تتركهم عرضة للتأثير عليهم من الاتجاهات الإسلامية العلمانية، والتى تعد تركيا هى مركزها الرئيسى، ولا تتركهم عرضة لحملات التبشير المسيحية التى تقوم بنشاط واسع، ومحكم بهذه البلاد.

فقد استطاع النظام الشيوعى بالفعل التأثير على مسلمى وسط آسيا بالطرق المادية المباشرة، والطرق المعنوية غير المباشرة من خلال الفنون، والآداب بمختلف أنواعهما وما تحتويه هذه الفنون من أفكار تستهوى ميول الشباب، والطبقة الكادحة من العمال، الأمر الذى تمخض فى النهاية عن إفراز أجيال أصبحت مسلمة اسما وشيوعية عملا، فلا حرج فى أن ترى المسلمين لا يعرفون تعاليم الإسلام، وكثير منهم يردد الشهادة بالعربية: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهذا غاية ما يعلمه ويعرفه عن الإسلام بل إن بعضهم كانوا يشربون نخب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فيشربون الخمور عند ذكره ولا يعرفون الحلال من الحرام فليس عندهم أى تعاليم عن الدين الإسلامى(١).

كل هذه الأساليب من إثارة جنسية أو غرائز حسية أو شرب خمور، أو اختلاط بين الجنسين أساليب شيطانية استطاع علماء النفس الشيوعيون أن يوصوا بغرسها فى نفوس أجيال الشباب الذين أصبحوا رجالا فى بلادهم، وأصبحوا لا يعرفون عن الدين الإسلامى إلا اسمه، ولا حرج فى ذلك إذا كانت تعاليم الدين الإسلامى لا يعرفونها إلا من خلال ترجمة "سا بلوكوف" لمعانى القرآن الكريم، ولا توجد لديهم ترجمة واحدة لمعانى القرآن الكريم من قبل علماء المسلمين من الأقطار الأخرى(٢).

خلاصة القول:

وبناء على ذلك نستطيع القول بأن الثقافة الشيوعية التى لا تحمل أفكارا حضارية بل تحمل معاول هدم للحضارات الثابتة كالإسلام، وغيره فكان لابد لها من الانهيار لاصطدام الأفكار الماركسية الإلحادية بالفكر، والحضارة، الإسلامية الثابتة وعلى ذلك، فإذا كانت الثقافة قد اختلفت مدلولاتها وتباينت تعريفاتها، وأخذت تفسيرات مختلفة، حسب رؤية المفكرين، والفلاسفة، والعلماء، وحسب موقعهم من الجغرافيا، والتاريخ.

فقد تأتى الثقافة بمعنى العلوم، والثقافة التى يحتويها العقل البشرى مع ربط ذلك بين الحاضر، والماضى، وقد تأتى بمعنى السلوك الإنسانى المعتمد على هذه المعارف أو المتأثر بها.

---

(١) عبد المنعم النمر - مصدر سابق، ص٦٣

(٢) أحمد رائف - المرجع السابق، ص٥٣

المبحث الأول

انتشار التصوف وتأثيره فى الحفاظ على الهوية الإسلامية

مقدمة:

إن لغة التصوف والطرق الإسلامية تمثلان ركنًا أساسيًا فى انتشار الدين الإسلامى فى المناطق النائية ثم الحفاظ عليه ضد أى فكر دخيل، وغريب، وقد كانت منطقة آسيا الوسطى هى المجال الرحب لانتشار تلك الطرق، وقد ساعد على ذلك أن شعوب هذه المناطق ذات تكوين عقائدى معين فلم تقبل فى يوم من الأيام أى ديانة، وضعية أو وثنية، ولكنها كانت بفطرتها تتجه لعبادة الله، وأن الدارس لتاريخ هذه البلدان، وحضارتها منذ العصر الإسطورى، وحتى يومنا هذا يدرك أن لهذه البلاد، وشعوبها شخصية متميزة، تكاتفت عوامل كثيرة لإنجازها سواء ما كان منها يستند إلى الآثار، والوثائق أم إلى غيرها، ويمكن للدارس من خلال قراءة علمية فى تاريخ تلك الشعوب أن يدرك أن مثلث الشخصية الإنسانية (الإنسان - البيئة - العقيدة)، وهذا الأساس القوى الذى بنيت عليه شخصية هذه الشعوب، ومن ثم فلا مناص من الرجوع إلى هذه المحاور الثلاثة لفهم شخصية هذه الشعوب(١).

على أنه ينبغى التنبيه إلى أن هذه المحاور لم تكن فى يوم من الأيام متوازية، أو متباعدة، بل كانت دائماً متقاربة متداخلة، فالإنسان ابن بيئته، خرج منها، وتفاعل معها، وتكيف معها حسب طبيعتها، وحسب قدراته كما شكلت هى كثيرا من صفاته وطبائعه، ولم يكن عنصر الدين أو العقيدة بعيدا عن روح هذا الإنسان، وبيئته بل لقد امتزجت مع بعضها البعض وأفرزت كيانا واحدا.

وتأكيدا لما سبق نجد أن نقوش أورخون تكشف عن فجر التاريخ لشعوب آسيا الوسطى، إلا أن كتب التاريخ الإسلامى قد كشفت عمًا هو أبعد من ذلك وأدق، فنجد فى كتب التراث الإسلامى أنه ثبت أن إنسان هذه البلاد، وطبقا لطبيعتها البيئية أنه محارب من الطراز الأول ومتمسك بتقاليده، ويكفى أن نعلم أن هذه البلاد، وسكانها لم تسجد لصنم فى يوم من الأيام(٢).

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام - مرجع سابق - ص١٣٥

(٢) بارتولد - مرجع سابق - ص٢٠

الباب الثانى

الفصل الرابع

جهود مسلمى وسط آسيا فى الحفاظ على الهوية الإسلامية

المبحث الأول : التصوف وتأثيره فى الحفاظ على الهوية الإسلامية.

المبحث الثانى : التأثير الأيدولوجى للروس على مسلمى وسط آسيا.

الحضارى مع حضارات اجنبية أخرى، وقد استطاعت هذه الطرق الدينية، والصوفية فى تحويل برابرة المغول إلى مسلمين موحدين بناة حضارة ثم حاربت القيصرية، والشيوعية واستطاعت أن تصمد أمامها وتحافظ لتلك البلدان على هويتها الإسلامية فى خضم فترة الجفاف الفكرى، والعبث الإلحادى الذى مارسته السلطات الشيوعية.

أهم الطرق الصوفية فى بلاد آسيا الوسطى والقوقاز:

١- الطريقة النقشبندية[١]:

وقد أسسها الذى سميت باسمه هو الشيخ بهاء الدين من نقشبند ولد فى بلدة قصر عارفة بالقرب من بخارى عام (٧١٨-٧٩٢هـ-١٣١٨-١٣٨٩م) وقد كانت هذه الطريقة تحتل المركز الأول بين الطرق الصوفية من حيث انتشارها، وعدد المريدين، والمنتسبين إليها، وقد انتشرت هذه الطريقة من القرن الخامس، وحتى القرن التاسع الهجرى، وترتبط هذه الطريقة بتاريخ الأسر التى حكمت تركستان فى ذلك الوقت[٢].

وقد انتشرت هذه الطريقة فى القرنين ١٧-١٨م بصورة كبيرة بين القبائل التركمانية فيما وراء الخزر، كما انتشرت شمال، وغرب القوقاز فظهرت فى داغستان، والشيشان، وأذربيجان.

وقد انضم لهذه الطريقة الطبقات ذات المستوى الرفيع كأثرياء التجار، والقادة العسكرين والمفكرين والشعراء الكبار أمثال «نوائى» - «عبد الرحمن جامى» وغيرهما ولم تكن هذه الصفوة من المجتمع تمثل كل أفراد الطريقة بل كانت أعداداً غفيرة من العامة، والقرويين ينتسبون لهذه الطريقة[٣].

وكان من أسباب انتشارها، وانتساب عدد كبير إليها هو أنها كانت تتسم بعدم التعصب وعدم الزهد المطلق، بل كان من ينتسب لهذه الطريقة يندمج فى المجتمع، ويتوافق سلوكه مع ظروف الحياة الاجتماعية، وكان جهاد هذه الطريقة ينصب على محاربة البوذية ثم الروس فى منطقة وسط آسيا.

---

(١) نقشبند: كلمة فارسية، تعنى مهنة النقش على المعادن وكانت هذه المهنة هى حرفة شيخ الطريقة.

(٢) هدى درويش - مرجع سابق، ص٣٤

(٣) بطروشوفسكى - الإسلام فى إيران - ترجمة د/ السباعى محمد السباعى - القاهرة - كمبيوجرافيك - سنة ١٩٩٤، ص٣٣٥

ونعنى بذلك، أن هذه الشعوب ذات فطرة نقية، وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وشواهد أمام المؤثرات الخارجية، حيث تذكر لنا كتب التاريخ صحة ذلك من عدم تأثير الديانات الوثنية كالزرادشتية أو البوذية أو المانوية أو غيرها على الفكر العقائدى لشعوب تلك البلدان، ولكن كان هناك نوع من التسامح مع أى ديانة تظهر بالمنطقة ولكن يغلب عليها فى النهاية عقيدة الفطرة التى فطر الله عليها الناس وهذه فطرة التوحيد، وهنا يجب علينا أن نتأمل الكيفية التى انتشر بها الإسلام فى تلك البلاد، وكيف واجه أهل هذه البلاد الدعوة الإسلامية، وقد شاءت إرادة الله أن يكون الإسلام عزيزا فى تلك البلاد فلا يدخلها إلا بعزة فيبقى فيها عزيزا فيخلد فيها إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها.

والدارس لتاريخ الفتوحات الإسلامية، يلاحظ أن الإسلام لم يدخل هذه البلاد دفعة واحدة، ولم ينتشر فى أرجائها بصورة كاملة فى وقت واحد، وإنما فتحت على مراحل ودخلها الإسلام وانتشر فيها تدريجيا، والسبب فى ذلك بالطبع هو وعورة الطبيعة الجغرافية لتلك البلدان وطبيعة شعبها، ومناخها، وإن أثبت التاريخ أن دخول الإسلام لتلك المناطق منجما كان سببا فى ترسيخه فى نفوس أهله، فأصبح ذا صلابة، وتأثيراً فى الفكر العقائدى حتى أنه أصبح من الصعب إخراجه من الصدور، مهما بذلت من محاولات، وليس أدل على ذلك من المحاولات القيصرية، والشيوعية لاجتزاز الأصول الدينية من نفوس أهله دون فائدة[1].

ويستطيع الدارس أن يدرك أن من أسباب انتشار الإسلام، والحفاظ على الهوية الإسلامية، رغم كل المحاولات التى بذلت ضده، إنما يرجع الفضل فيها للتصوف الإسلامى الذى كان له الأثر الكبير فى تعميق الإسلام فى نفوس أهله، حيث كان سلوك الصوفية يتواءم مع طبيعة هذه البلاد وأهلها، ومن ثم كان للتصوف الإسلامى أثره فى تلك البلدان، فنجد تجاوب الفكر الصوفى مع طبيعة البلاد، فكان التصوف يمثل فلسفة فكرية عملت على علاج أمراض الشخصية القومية التى تسببت فيها البيئة، وأهمها حالة الاغتراب التى يعيشها أهل هذه البلدان نتيجة الكوارث الطبيعية أو السياسية أو التجارب الحربية التى عاشوها طوال تاريخهم الطويل[2] والتى حولت وحدتهم إلى حد التمزق، فكان التصوف وسيلة لأن يكون الاغتراب فرارا مع الدين لرفض الذوبان الفكرى ورفض التجنس العرقى أو الاندماج

---

(١) عبد المنعم النمر - المرجع السابق، ص١١٧

(٢) بطروشوفسكى - المرجع السابق، ص٢٩٩

واتخاذ الجهاد شكلا من اشكال العبادة لأكثر من قرن من الزمان بعد أن أصبحت هدفا للروس الذين جاهدوا على إبادة هذه الطريقة ولكن الله غالب على أمره.

ومن ثم نجد أن هذه الطريقة كان لها دور فعَّال فى الحفاظ على الهوية الإسلامية وفى تثبيت وترسيخ قيم الإيمان والإسلام فى نفوس المسلمين، وكانت عونا ودافعا نفسيا لاستمرار المسلمين فى الجهاد والانتشار والحفاظ على التراث والقيم والهوية الإسلامية ضد أى فكر ملحد ودخيل.

٣- الطريقة الكبروية:

قد أسسها الشيخ نجم الدين كبرى الخورازى (١١٤٥-١٢٢٠م)، وقد قتل على يد المغول أثناء استيلائهم على خوارزم، وشاء الله أن تدخل قبائل المغول المهاجرة الإسلام على يد أصحاب هذه الطريقة، وانتشرت هذه الطريقة فى أرجاء آسيا الوسطى وخاصة منطقة خوارزم، وكانت هذه الطريقة تؤدى أذكارها وأورادها بطريقة علنية، ولكن بعد الاستيلاء الروسى على تلك المنطقة وملاحقة أتباع الطريقة، أصبحت الأذكار خفية مثل الطريقة النقشبندية، وظلت ومازالت قائمة ومحافظة على روح الإسلام وعلى القيم والتقاليد الإسلامية من عبث الملحدين[1].

٤- الطريقة اليسوية:

تأسست هذه الطريقة على يد الشيخ أحمد اليسوى المتوفى عام ١١٦٦م وقد نشأت شمال كازاخستان، وكان شاعرا عظيما، وكان لأشعاره تأثير كبير فى دخول قبائل الترك والمغول للإسلام.

وقد انتشرت هذه الطريقة فى معظم بلاد آسيا الوسطى، وخوارزم، والتركمان والتتار، وانتشرت طوائف اليسوية فى خراسان وآسيا الصغرى.

وكان كثير من الزعماء العسكريين فى وادى فرغانة من شيوخ الطريقة اليسوية أمثال «عبد العزيز مقسوم - ملادهقان - حال خوجة» وغيرهم، ومن سمات هذه الطريقة الزهد وعدم الانغماس فى الأمور الدنيوية، وكانت تؤدى أذكارها بطريقة خفية بعد الاحتلال الروسى حفاظا على بقائها.

وكان لهذه الطريقة نشاط فعَّال فى المنطقة وكانت السلطات الروسية تتهم

---

(١) بطروشوفسكى - مرجع سابق، ص١٣٨

ولذا كان انتشارها عنصرا أساسيا فى منظومة الحياة السياسية، والاجتماعية والثقافية، فكان لها دور فعَّال، ومؤثر فى مناطق نفوذها فى الداغستان وشرق الشيشان، وشمال أذربيجان وفى الحفاظ على القيم، والتقاليد، والتعاليم الإسلامية ضد أى فكر دخيل، وقد دفعها ذلك إلى أن تمتد إلى المناطق الشرقية، والجنوبية من تركمانيا فى آسيا الوسطى، وكذا وادى فرغانة ومنطقة القرغيز ومنطقة خوارزم والقارا قالباق[1].

٢- الطريقة القادرية[2]:

وهى تعد من أقدم الطرق بالمنطقة ومؤسسها هو الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٧١-٥٦٢هـ- ١٠٧٧-١١٦٦م)، وهى تحتل المكانة الثانية بين الطرق الصوفية من حيث الانتشار، وعدد المنتسبين إليها، وكان مركزها بغداد ثم انتقلت إلى إيران ثم طردت منها بعد انتصار التشيع فى العصر الصفوى، لأن الشيخ عبد القادر الجيلانى كان سنيا حنبليا ومعاديا للشيعة.

ثم انتقلت إلى بلاد آسيا الوسطى عن طريق التجار العرب، وظهرت فى فرغانة فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقد حافظت هذه الطريقة على التراث، والفكر والهوية الإسلامية، أثناء النكبات التى تعرضت لها المنطقة، وظلت محافظة على وجودها حتى الآن، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دخلت هذه الطريقة إلى الشيشان، وكان لها دور حيوى ومؤثر على يد مرشدها «فونتا حاجى»، وقد لعبت تلك الطريقة دورا أساسيا فى ترسيخ الإسلام فى منطقة القوقاز، والداغستان، وقيرغيزيا، وكازاخستان، وشمال أذربيجان وغيرها[3].

وكانت هذه الطريقة تؤدى أورادها من خلال حلقات الذكر والأغانى الدينية فكانت محل جذب كثير من العامة، ومن سمات هذه الطريقة الاصولية ضد أى فكر أو محتل منحرف، عكس الطريقة النقشبندية التى عرف عنها تسامحها مع الوجود الروسى[4].

وقد كان موقف الطريقة القادرية من الفكر الروسى الملحد وتعصبها ضده

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٧

(٢) هدى درويش - مرجع سابق - ص٣٥

(٣) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - مرجع سابق، ص٧٣

(٤) هدى درويش - مرجع سابق، ص٣٥

وتفيد هذه الدراسات التى تمت فى هذا الموضوع بأن التصوف هو سلوك دينى وعمل تطوعي ينتقل من الأب إلى الابن، كما تفيد الدراسة بأن معظم أتباع الطريقة قد انضموا إليها عن طريق العائلة التى حافظت بدورها على نمط الحياة التقليدى، وأن احترام الأسر لمرشد الطريقة وشيخها له علاقة وطيدة بروح القبيلة، إذ أن الاحترام العميق للمرشد يمتزج بالموروثات القبلية.

ويذكر الباحثون، والمتخصصون السوفيت فى موضوع التصوف أن فى الفترة الأخيرة انضم أعداد كبيرة من الشباب لفرق التصوف، وتعد هذه الفئة أكثر تعصبا، ويرى هؤلاء المتخصصون أن الفرق الصوفية بمختلف مسمياتها وطوائفها جادة فى تحمل مسئوليتها تجاه الإسلام، ولو سمح لها بنشر أفكارها أو الدعاية لطريقتهم فسوف يشكلون خطرا كبيرا على استقرار المجتمع السوفيتى، وتلك الفرق تركز على دعايتها، وأساس منهجها هو تدريس القرآن الكريم خاصة للأطفال، والشباب، وبذل المال لتلبية احتياجات المساجد.

وقد حددت إحصائيات عام ١٩٧٩، أن عدد سكان آسيا الوسطى ٢٧ مليون نسمة تقريباً منهم ١٠٪ ينتسبون للطرق الصوفية[١].

وتجدر بنا الإشارة إلى أن:

الطرق الصوفية التى تم ذكرها، لم تكن هى الطرق الصوفية الوحيدة فى بلاد وسط آسيا، والقوقاز، ولكن ما ذكرناها هى أهم، وأشهر الطرق، وتوجد طرق صوفية كثيرة قليلة الأهمية، والعدد، ومنها الطريقة المولوية، والطريقة الشاذلية، والطريقة البكتاشية، والطريقة الجلالية، وغيرها الكثير.

ومن هذا المنطلق، نجد أن هذه الطرق كبيرة كانت أم صغيرة، كانت تسير وفقا لمفهوم واحد وهو الحفاظ على روح الإسلام وعلى تعاليمه، وقيمه، ومحاربة أى فكر ملحد أو دخيل ضد الإسلام، وعلى ذلك فقد لعبت هذه الطرق دوراً مهمًّا ومؤثراً فى الحفاظ على الهوية الإسلامية[٢].

وتؤكد الدراسات الحديثة لمجموعة من الباحثين[٣] فى فرنسا، والمتخصصين فى آسيا الوسطى عن الطرق الصوفية، والأماكن المقدسة، ودورها الذى لعبته فى

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦

(٢) هويدا محمد فهمى - الاقليات المسلمة والصراعات العرقية - جامعة القاهرة - مركز الدراسات الشرقية سنة ٢٠٠٠، ص٥٩

(٣) سلوى عبد الحمد لطفى - مرجع سابق - ص٣٥

أنصار هذه الطريقة بإثارة العصيان ضدهم فى أوزبكستان - طاجكستان - قيرغيزستان وغيرها من مناطق نفوذ الطريقة، حتى أن السلطات الشيوعية قامت بالقبض على زعماء هذه الطريقة وإعدامهم بتهمة التخريب، والإثارة، والإرهاب، ومع ذلك ظلت هذه الطريقة تقوم بدورها الفعال ضد النظام السوفيتى، وظلت ومازالت حتى الآن لها وجود وتأثير قوى فى نفوس المسلمين(١).

وكان الروس ينظرون إلى المجاهدين المنتسبين لتلك الطريقة أو لغيرها بأنهم رجعيون وطفيليون، فمع ظهور الاحتلال الروسى، وقيامه بعمليات الإبادة، والتخويف والتشريد الجماعى، والعمل على محو الإسلام من نفوس أهله ظهرت طائفة من المجاهدين والمتصوفين، ورجال الدين لتحمل راية الجهاد ضد الإحتلال الروسى البغيض فى سبيل تثبيت الإسلام فى نفوس المسلمين، وظهر بين المجاهدين «الإمام شامل» وكان يجاهد فى منطقة القوقاز، وكذلك المجاهد «اشأن مدالى» وكان يجاهد فى منطقة فرغانة، والمجاهد«قربان مراد» وكان يجاهد فى تركمانيا، وغيرهم الكثير، والكثير، ممن تحصنوا بالإسلام، وحصنوا به غيرهم، وحافظوا على القيم الإسلامية.

وبذلك نجد أن التصوف فى منطقة آسيا الوسطى كان له أثر عظيم فى تثبيت وترسيخ الإسلام، والمحافظة عليه، وعلى هويته ضد الفكر الشيوعى الملحد، وكانت تلك الطرق الصوفية هى التى تقود الثورات، وحركات المقاومة ضد الروس، الأمر الذى دفع المتخصصين، والباحثين السوفيت فى طرح، ومناقشة تصفية التصوف والمتصوفين الذين مثلوا عقبة أمام الروس فى السيطرة الفكرية، والعقائدية على وجدان وعقول المسلمين فى آسيا الوسطى، وقد قام هؤلاء الباحثون بعمل استطلاع للآراء فى إحدى القرى الشيشانية فكانت نتيجة هذا الاستطلاع الآتى(٢):

- ٣٢٪ من عدد السكان انضموا لهذه الطرق باختيارهم الشخصى.
- ٣٦٪ من عدد السكان انضموا لهذه الطرق بالتبعية لأسرهم.
- ١٥٪ من عدد السكان رفضوا الإجابة.
- ٦٪ من عدد السكان لم يقدموا إيضاحات.

---

(١) بطروشوفسكى - مرجع سابق - ص٢٣٠

(٢) المرجع السابق، ص٣٦

ولقد لعبت هذه الأماكن المقدسة دوراً مهمًّا فى الحفاظ على الشعور الدينى لدى المؤمنين، وتعد تركمنستان من أكثر الجمهوريات فى آسيا الوسطى التى نشطت فيها الطرق الصوفية، وقد حافظت هذه الطرق على الشعور الدينى، والتقاليد، والتعاليم الإسلامية، فنجد أن السلطات الروسية هدمت، وأغلقت جميع المساجد فى تركمنستان إلا أربعة فقط على مستوى الجمهورية منها مسجد واحد فى العاصمة «عشق آباد»، وبالرغم من ذلك نجد أن الشعور الدينى قد ظهر بصورة أعمق فى هذا المكان عنه فى بقية الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتى، وتعد تركمنستان، وقيرغيرستان من اكثر المناطق تقديساً للاماكن المقدسة فى آسيا الوسطى، ويرجع ذلك للنشاط الذى قامت به الطرق الصوفية فى تلك المناطق(١).

ويضيف البحث أن الجزء الشرقى لوادى فرغانة كان منذ القرون الوسطى أحد المراكز الدينية الأكثر نشاطا فى آسيا الوسطى، وبه مدينة «فاشكس» التى يسميها التركستانيون «مكة الثانية»، وهى من أهم مراكز الصوفية فى آسيا الوسطى، وفى قيرغيرستان يوجد أشهر هذه الأماكن وهو «عرش سليمان» وهو مقام على قمة جبل صغير فى ضواحى مدينة فاشكس، وكانت تأتى لزيارته أعداد غفيرة من الحجاج يحضرونها فى شهر يوليو حتى سبتمبر، وفى شهرى نوفمبر، وديسمبر من كل عام(٢).

وفى طاجكستان كانت الطرق الصوفية أقل نشاطا لعدم وجود أماكن مقدسة ذات أهمية لدى المؤمنين، وعلى العكس من ذلك تعتبر أوزبكستان ذات وضع خاص، وهى أكثر جمهوريات آسيا الوسطى ازدحاما بالسكان، وهى ذات حضارة باهرة وتجمع المراكز الثقافية، والتاريخية، والدينية، المهمة مثل بخارى، وسمرقند، وخوقند، وطشقند.

وقد انتهى البحث إلى نتيجة مهمة، وهى أن الإسلام فى تلك البلاد إسلام حقيقى برغم تخريب الثورة الثقافية، وهو إسلام يدعو إلى إعادة تقييم مفهومنا للمشكلة الإسلامية المليئة بالمغالطات التى يفرضها الواقع الإيرانى، والأفغانى، والعالم الشيوعى، ولكى يعظم دور الإسلام فى تلك المناطق، لابد وأن يبدأ من مكة المكرمة، والتى تمثل المركزية الثقافية، والروحية للدين الإسلامى الذى يعتنقه العديد من القوميات المختلفة.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨

(٢) سلوى عبد الحميد لطفى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى- مرجع سابق، ص٣٥

حياة هذه الشعوب على الحفاظ على العقيدة، والهوية الإسلامية فى نفوس مسلمى تلك البلدان حتى الآن.

ويبدأ البحث بسرد قصة الإسلام فى آسيا الوسطى منذ القرن السابع الميلادى، واستمراره حتى الآن، واتحاد مجهودات العرب، والإيرانيين، والأتراك الشرقيين والعثمانيين، والقوقازيين لنشر الإسلام، وتثبيته بكل الطرق، فى هذه الأرض الشاسعة والتى تمتد من القوقاز غرباً حتى حدود الصين شرقاً، ومن قازان حتى الحدود الإيرانية الأفغانية، وانتشار الإسلام عن طريق الفتوح الإسلامية، والعمل الدبلوماسى لخليفة بغداد والإمبراطورية العثمانية، وبفضل نشاط التجار المسلمين، وأيضا بفضل النشاط المكثف للطرق الصوفية التى تحولت إلى حركة شعبية أصبحت آسيا الوسطى إحدى المناطق الأكثر فاعلية فى انتشار التصوف.

ويؤكد الكاتب على أهمية الدور الذى لعبته الأماكن المقدسة كمركز لتجمع المقربين، والمريدين، وهذه الأماكن التى تسمى «مزارات» وهى إما مقام لبعض مشايخ الصوفية، وإما أماكن مخصصة لشخصيات أسطورية، ويقال إن مكانة، وشعبية هذا المكان المقدس ليست مرتبطة بالضرورة بالحقيقة التاريخية للشخصية.

وقد ارتبط تاريخ الطرق الصوفية دائماً بالأماكن المقدسة، والتى كانت دائما ما تلحق بها مدارس دينية، وأماكن تسمح بالتقاء المؤمنين، وكانت هذه الأماكن موضع هجوم دائم من السلطات السوفيتية، التى كانت تقوم بغلق هذه المزارات بقرارات إدارية أو أمنية، وتحويلها لمتاحف أو نوادٍ، إلا أن هذه الأماكن المقدسة كانت سرعان ما تعود لسيرتها الأولى[1].

ويستطرد الكتاب فى أن توزيع الأماكن المقدسة على خريطة الجمهوريات الإسلامية تمثل نوعاً من الجغرافيا المقدسة، وتعتبر دليلاً على حيوية الإسلام واستمراريته، وبحصر هذه الأماكن تعتبر الأماكن المقدسة الشهيرة قليلة، ويذكر على سبيل المثال، مقابر مشاهير الطرق الصوفية أمثال «مقابر بهاء الدين النقشبندى» شيخ الطرق النقشبندية، أحمد اليسوى، شيخ الطريقة اليسوية، ونجم الدين الكبرى شيخ الطريقة الكبرية.

أما فى الأماكن الريفية، والبدوية فالأماكن المقدسة كثيرة، ولكنها أقل أهمية من الناحية الأثرية.

---

(١) هدى درويش - مرجع سابق، ص٣٧

ونستطيع أن نخلص من هذا إلى أن الطرق الصوفية قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنها كانت أهلا للمسئولية التى حملتها للحفاظ على الهوية الإسلامية، فنجد أن هذه الطرق عملت فى عدة محاور فى وقت واحد منها!

أولاً: عملت على تمسك المسلمين بدينهم، وتقاليدهم، وحذرتهم من عدم التفريط فى تعاليم الإسلام.

ثانيًا: رسخت المفاهيم الإسلامية الحقة فى نفوس الشعوب التى كانت حديثة العهد بالإسلام، وكانت تقع تحت ضغوط شديدة للتنصير، فكان دور هذه الطرق التى جعلت الموت عند المؤمن أحب إليه عن ترك دينه.

ثالثًا: عملت على دحض أى فكر منحرف أو ملحد تروج له السلطات الشيوعية، فكانت تمثل السد المنيع ضد المخطط الماركسى للنيل من الإسلام، وتعاليمه.

رابعًا: عملت على توحيد المسلمين تحت قيادة سواء فى الإرشاد الدينى أو العقائدى أو فى الكفاح ضد العدو الروسى.

خامسًا: كانت تقوم بتلبية احتياجات المساجد، والمدارس من أموال لضمان استمرارية نشاطها.

سادسًا: كانت تلك المحاور تمثل القيادة الدينية الحكيمة لشعوب تركستان، والقوقاز فى وقت كانت تلك الشعوب فى أمس الحاجة لمرشد أو قائد يأخذ بيدها ضد المحتل الغاصب فكان دور هذه الفرق بمثابة طوق النجاة الذى تشبثت به أيدى المسلمين، وقلوبهم، وعقولهم فى تلك البلدان، وقد نجحت هذه الطرق فى إتمام مهمتها ضد الفكر الشيوعى.

وقد أثبتت التجربة بالفعل أن الحملات التى استمرت ضد الإسلام نحو سبعين عاما فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية، لم تستطع النيل من التمسك بالدين، ففى حين كانت ترى السلطات الشيوعية أن تطبيق النظام، والتقاليد الإسلامية هو نوع من الفلكلور القومى لآقليات عرقية، كان المسلمون يرون فى الماركسية اللينية أسلوبا حكوميا يمكن تطبيقه فى عالم الأشغال العامة، ولكنه غريب تماما عن المجال الدينى، وهذا هو سر التعايش بين الإسلام، والماركسية المضطرب دائما.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن الإسلام فى هذه المنطقة من ديارالإسلام يستمد من الحركات الصوفية، ما يقوى به وجوده، ويثبت أركانه، فإن المؤمنين حريصون دائما على الحفاظ على إيمانهم المشترك فى محيط الأسرة أو العمل أو المدرسة أو حتى فى السجون، وهذا من أجل المضى فى تعميق قواعد دينية دائمة الصفاء.

وليس هذا الوضع يتعلق بدول آسيا الوسطى وحدها. ولكن نجد أن الطرق الصوفية كان لها ذات الأثر فى الجمهوريات التى تتمتع بالحكم الذاتى، أو فى الأقليات الخاضعة للحكم الشيوعى، حتى الآن فنجد أن الطرق الصوفية قامت بدور فعَّال فى جمهوريات شمال القوقاز، جمهورية «جيجن، ونجوشتا، وششن» ونجد أن الإسلام قد رسخ وجوده فى تلك المناطق فى القرن ١٨ بفضل إنشاء الجماعات الصوفية النقشبندية التى أتت من داغستان ثم ظهرت جماعة صوفية أخرى، وهى القادرية، وكان لتلك الطرق مواقف جليلة ضد الروس(١).

وكذلك الحال فى جمهورية داغستان، التى دخلت الإسلام فى القرن الثامن الميلادى وظل نفوذه يتعزز ويتعمق فى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر بفضل النشاط المنظم الذى كانت تبذله الجماعات الصوفية، وخاصة الطريقة النقشبندية.

وكذلك جمهورية أوسيتيا الشمالية، وهى إحدى الجمهوريات القوقازية، وهى بلاد كان بها الكثير من المسلمين، وأعداد كبيرة من المسيحيين، ولكن وبفضل وجهود الجماعات الصوفية زاد عدد المسلمين عن عدد المسيحيين.

وكذلك الحال فى جمهوريات أبخازيا الجركسى، وغيرها من الاقليات التى حافظت على هويتها الإسلامية بفضل الطرق الصوفية التى كانت تقف دائماً، وأبدا ضد أى فكر ملحد أو منحرف(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧

(٢) المرجع السابق، ص٣٨

ولكن لابد للباحث فى هذا الصدد من أن يفرق من الناحية التاريخية، والجغرافية والثقافية بين الشعوب التى دخلت الإسلام مبكرا، وتلك التى دخلته فى عهد قريب.

فنجد أن الإسلام ظل قويًا على مر التاريخ فى نفوس أبنائه فى المناطق التى دخلها مبكرا وكذلك فى المناطق الحضرية مثل أوزبكستان وطاجكستان وغيرها.

فى حين نجد أن قوة اختراق الإسلام للثقافات المحلية ليست عالية فى قازاقستان وقيرغيريا، وهى المناطق التى كانت تسكنها قبائل بدوية كان تأثير الإسلام عليها ضعيفا، ومع ذلك ظل الإسلام محافظاً على أهم خصائصه، وهى الثبات والاستمرارية فى نفوس شعوب آسيا الوسطى الإسلامية، بل اقتصرت الكتابات عن الإسلام بوجه عام، وعن أحوال المسلمين هناك، ولم تتطرق الكتابات للتعرف على كيفية تفاعل الإسلام كدين وثقافة مع المحاولات الجادة من قبل السلطات السوفيتية لإحلال ثقافة شيوعية اشتراكية أساساً لمشروع بناء الاتحاد السوفيتى وتقويض الثقافات التقليدية ذات الطابع الدينى، والتى شكلت عائقا أمام ذلك المشروع، وكانت بمثابة الوعاء للنزاعات المحافظة على التمييز القومى، ومقاومة الاندماج فى المجتمع السوفيتى، وقد توصلت تلك الدراسات الى نتيجة واحدة تمثلت فى الاعتراف بقدرة الإسلام على الاستمرارية بالرغم من قوة، وكثافة الحملات الروسية، والرسمية المعادية.

ورغم قوة، وقسوة النظام الشيوعى إلا أن الدلائل المادية على استمرارية الإسلام فى تلك المناطق كانت واضحة فى ثلاثة أمور، كانت ومازالت كما هى منذ الفتح الإسلامى، وحتى استقلال تلك الدول، وهى تمثل العادات، والتقاليد، والتعاليم الإسلامية، وتلك أمور هى[1]:

- استمرار مزاولة الختان للطفل المسلم.

- استمرار إتمام الزواج على الطريقة الإسلامية (يتم العقد بمشاركة إمام المسجد وتقرأ آيات من القرآن الكريم).

- استمرار مراسم دفن الموتى من المسلمين (غسل - كفن - جنازة - تلحيد - دعاء).

كل هذه الأمور، والطقوس الدينية تدل دلالة كافية على ثبات الإسلام،واستمراريته عند شعوب آسيا الوسطى خاصة وأنها تتم فى بيئة معادية[2].

---

(١) صالح الخثلان - ندوة الوطن العربى كومنولث الدول المستقلة - القاهرة - جامعة الدول العربية سنة ١٩٩٤، ص١١٩

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠

المبحث الثانى

التأثير الأيديولوجى للروس على مسلمى وسط آسيا والقوقاز

إن مسألة الدين والقومية فى الاتحاد السوفيتى، كانت ومازالت تمثل الاتجاه الأيديولوجى للشيوعية الروسية، والتى أثبتت فشلها طوال الأعوام الماضية، فإن الشيوعية لم تستطع فرض الوحدة الأيديولوجية حتى على الشعوب، والقوميات الصغيرة، فمازالت تلك القوميات ناصية اللغة، والدين، والفكر الخاص بها ولقومياتها، فكيف كانت تتوقع السلطات الشيوعية أن تنجح فى البلدان الآسيوية الكبيرة وذات التاريخ، والحضارة، والمدنية العظمى مثل بلدان تركستان، وقد تنبه المفكرون الروس لتلك الحقيقة، ولمسوا حقيقة مهمة وهى[1]: لكى تغدو للشيوعية أيديولوجية ناجحة بالإضافة إلى نظام سياسى، فإن عليها أن تبدل من صفتها، وتزيد من مبادرتها الروحية أو عليها ان تسمو إلى ذروة التعاليم الدينية لبلدان آسيا، قد بدأ تنفيذ هذا الاتجاه بإقرار مبادئ تسمى «بأخلاق الشيوعية» التى تدرس فى المدارس الروسية والذى يضع تأكيدا كبيرا على الصدق، والشرف، والاستقامة كأخلاق حسنة لضمان سير الآلة الحزبية، ويكون منافسا للكتب الدينية، ولكن كان لابد للشيوعية أن تخسر هذا المجال الروحى رغم ربحها فى المجال المادى، ومن هنا تكمن نقطة الضعف الأساسية فى الجهاز الشيوعى السياسى، والأيديولوجى كله، وفى سياسته الخاصة بالدين والقوميات[2].

وهنا نرى أنه طالما أن الدين باق جنبا إلى جنب مع القومية، فإن ذلك يعطى دلالة كاملة على أن التأثير الأيديولوجى للشيوعية لا وجود له فى نفوس شعوب آسيا الوسطى، وهذا هو الحكم الأعم والأشمل، ولكن توجد بعض الاستثناءات على هذا الحكم، فنجد بعض الأشخاص ممن يحملون الدين الإسلامى، والقومية الخاصة به يندمج مع النظام الشيوعى، وفكره من أجل تحقيق مصالح شخصية، ومادية وإن كانت هذه الحالات تعد فى نظر القومية خيانة عظمى، فإنها أمام التاريخ تعد حالات فردية لا تعبر عن نجاح الأيديولوجية الشيوعية فى بلدان آسيا الوسطى[1].

---

(١) ويلتر كولارز - مرجع سابق، ص١٣٢

(٢) المرجع السابق، ص٣١٣

(٣) فوزى محمد طايل - آثار تفكك الاتحاد السوفيتى - مرجع سابق ص١٣١

البرنامج الشيوعى، والذى كان يهدف لترويس المسلمين، أى إلى تحويلهم إلى روس بالتغيير فى الأسماء، والعادات والتقاليد وبعدهم عن دينهم وعدم الاعتداء به فى شئون حياتهم، وتربية النشء على ذلك لتغيير منهج التفكير عندهم، ومع كل ذلك لم يتأثر الفكر الإسلامى بالأيديولوجية الشيوعية، وظل الإسلام على خصوصيته من الثبات والاستمرارية فى نفوس المسلمين ظاهرا وباطنا وكانت الأيديولوجية الشيوعية تسيطر على الفكر المسلم بالعبث فى المسائل الدينية وتشويهها من جانب، ثم تقوم بتقديم الأفكار الماركسية فى صور متعددة، أحيانا فى شكل فنون وتارة فى شكل أعمال أدبية، وأحيانا أخرى فى صورة مضاهاة للدين، وأفكاره ومعتقداته البالية من وجهة النظر الماركسية، وكان مليئا بالمغالطات المتعمدة والهذلية، وذلك واضح تماما من ترجمة كراتشكوفسكى للقرآن الكريم الذى تعمد فيه بث المغالطات والغموض، بل لقد تضمنت بعض أجزاء من ترجماته إسباغ الكذب على كل ما هو صادق فى القرآن وتحويل الصلاح إلى فساد، وهكذا انتهج كراتشكوفسكى منهجه عن قصد تنفيذا لطلبات السلطات السوفيتية التى علقت آمالها عليه فى زرع الكراهية فى نفوس الناس من ناحية الدين الإسلامى(١).

وعلى هذا جاءت الترجمة تحمل نصوصا للقرآن مبهمة، وغامضة، وثقيلة المعنى والإدراك حتى إن من يطالعها لا يفهمها وتنفر منها نفسه وهذا هو المقصود من الترجمة وقد نجح كراتشكوفسكى فى تحقيق الخطة الماكرة التى وضعتها السلطات الشيوعية لخلق جو هادئ ومهيأ لنشر الفكر الماركسى الإلحادى(٢).

ولإحكام تنفيذ هذه الخطة بإتقان تام فإن أنصار الفكر الشيوعى رحبوا بهذه الترجمة ووصفوها بأنها حدث تاريخى علمى لم يسبق له مثيل فى علم الاستشراق، وزعموا أن من لا يفهم هذه الترجمة جاهل بشئون الدين الإسلامى(٣).

رغم أن هذه الأخطاء شملت القرآن الكريم كله، وفى مختلف سوره ولسوف نسوق مثالاً واحداً على ذلك:

«فى سورة الناس جاءت ترجمته الحرفية» إله الناس الذى يختبئ من شر الوسواس «أيعقل هذا؟ أيعقل أن الله سبحانه وتعالى يخاف ويخشى من مخلوق له دنئ، بل ويختبئ منه.

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام - العدد التجريبى - مصدر سابق، ص٥٦

(٢) المرجع السابق، ص٥٨

(٣) أحمد رائف - شمس الإسلام - العدد التجريبى، ص٥٦

واليوم، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وبمجرد الإحساس بملامح الحرية فى روسيا الشيوعية، سارع المسلمون إلى بناء المساجد، وتعميرها من جديد واندفع الناس وخاصة الشباب إلى داخل المساجد رغم عدم معرفتهم بالصلاة، فبرغم بعدهم عنه فإن قلوبهم عامرة بالإسلام فيعودون إليه بحماس شديد رغم محاولات السلطات السوفيتية طمس الثقافة الإسلامية وإبعاد المسلمين عن روح الحياة الإسلامية، وقد ساعدتها القوانين الشيوعية التى حاصرت التعليم الإسلامى، ومنعت نشر الكتب الإسلامية خاصة ما يتعلق منها بالتراث والأدب الإسلامى، وكانت السلطات الشيوعية قد خصصت لذلك جماعات لا دينية تقوم على الأيديولوجية الشيوعية لمحاربة الأديان، ومنع نشر كتبها، وفى نفس الوقت تشجع نشر الكتب ذات الفكر الإلحادى، ومع كل ذلك بقيت جذوة الدين موقدة فى قلوب المسلمين مصداقاً لقوله تعالى ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١).

وعندما نسوق بعض الأدلة المادية التى تعبر عن الحالة الفكرية، والأيديولوجية لمسلمى وسط آسيا، نلاحظ أن الإسلام كان كامناً فى النفوس، وحين رأى بارقة نور أطلق عنانه للخروج، وللتعبير عن مكونات نفسه المؤمنة، وهذا ينطبق بالطبع على شتى بقاع الاتحاد السوفيتى فى جمهورياته المسلمة المستقلة، فمثلا فى منطقة قازان، وعندما صعد المؤذن منارة المسجد ليرفع الأذان فى عاصمة التتار (تتارستان) بعد ظلم وقهر دام أكثر من سبعين عاماً، وقف الناس فى سعادة غامرة، وكبروا وهللوا بعد ظلم إيفان الرهيب الذى منع الأذان والتدين، وقتل العلماء، وشرد المسلمين، ومثل بزعمائهم وذلك فى منطقة القرم، والتى شهدت تحويل المساجد الى مسارح، وكباريهات، ونواد ليلية للرقص بعد أن خصصوا مساحة المسجد للراقصات، إهانة للمسجد(٢)، وللمسلمين ومشاعرهم، ولكن شاءت إرادة الله أن ينقشع الظلم ويعود الإسلام إلى عزته ومجده بنصر من الله.

وكذلك الحال فى داغستان، وطشقند، وأذربيجان، ووادى فرغانة، وغيرها من البقاع المسلمة التى شهدت ميلاد العلماء، وكانت مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية، فها هى تعود اليوم لمجدها، وتاريخها الذى توقفت حركته عشرات السنين، والذى كان يعد الدافع القوى، والخفى فى نفوس المسلمين لمحاربة

---

(١) فوزى محمد طايل - المرجع السابق، ص١٤٢

(٢) أحمد رائف - المرجع السابق

الاتحاد السوفيتى تحديات داخلية فى المناطق الإسلامية، وكأن مبادئ «لينين» لم تتشربها دماء المسلمين، وبرغم القوى اليقظة التى تحارب الدين، فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعا، وما زال يتفجر بالقوة، بدليل أن ملايين من الجيل الجديد فى المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام، ويجاهرون بتعاليمه مع أن قادة الحزب ومفكرى المذاهب لا يغيب عنهم خطر يقظة الإسلام، والذى أشارت إليه «دائرة معارف الثقافة السوفيتية»، ووصفته على حقيقته بأنه أخطر الأديان المرجعية، ويبذل أقصى جهده ليكون فى خدمة المستغلين، والإقطاعيين، والرأسماليين ويناهض الحركات التحررية.

وتركز الوثيقة فى موضع آخر عن المخطط الشيوعى لهدم الإسلام ومن هذا المخطط بأن تتخذ من الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام وقد تقرر ما يلى[1]:

١- مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ولتجتذب الشعوب الإسلامية للاشتراكية.

٢- تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية.

٣- تعميم دراسة الاشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع مراحل التعليم ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية.

٤- الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما يكن شأنها ضعيفا والعمل اليقظ الدائم لمحو أى انبعاث دينى.

٥- لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطير فى بناء المجتمعات، ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات، وفى كل مكان وإلصاق التهم به، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لا ينم عن معاداة الإسلام.

٦- تشجيع الكتاب الملحدين وإعطائهم الحرية الكاملة فى مهاجمة الدين، والشعور الدينى والضمير الدينى والعبقرية الدينية، والتركيز فى الأذهان على أن الدين انتهى عصره.

٧- قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعا تاما، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التى هى أكبر خطر على اشتراكيتنا العالمية.

٨- إن فصل روابط الدين ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد، والكنائس لأن الدين يكمن فى الضمير، والمساجد، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية،

---

(١) عبد المنعم النمر - مرجع سابق، ص١٢٨

وعلى هذا المنوال كانت ترجمة كراتشكوفسكى لكل سور القرآن الكريم فقد ظهرت حقيقة فكره وشر مقصده وتعمده لإرضاء السلطات الشيوعية، وبالرجوع إلى تاريخ الاستشراق الروسى نجد أن أول ترجمة تمت من النص العربى قام بها المستشرق «سابلوكوف» من مدينة قازان وتم نشرها عام ١٨٧٨ ثم طبعت مرتين عام ١٨٩٤ و ١٩٠٧ وظلت هذه الترجمة متداولة فى الأوساط العلمية، وبين جمهور القراء على مدى قرن تقريبا ولكنها مع مرور الوقت أصبحت نادرة ثم ظهرت عام ١٩٦٣ ترجمة المستشرق "كراتشكوفسكى" وهى آخر ترجمة وأصبحت هى المعمول بها(١).

وبمراجعة تاريخ الترجمتين نجد أن الترجمة الأولى للمستشرق سابلوكوف كانت فى العهد القيصرى، وقبل العهد الشيوعى الإلحادى، وأصبحت نادرة، ولم تقم السلطات الشيوعية بإعادة طبعها لكونها ترجمة صغيرة وصحيحة لمعانى القرآن الكريم، ويستطيع أى إنسان أن يفهم ما يريد رغم الأخطاء غير المؤثرة فى المعنى العام للترجمة، فهى فى النهاية ترجمة صغيرة ولكنها مفيدة، ولذا عمدت السلطات الشيوعية على إخفاءها، واستعاضت عنها بترجمة كراتشكوفسكى بما تحويه من مقاصد شريرة، ومفاسد مقصودة تهدف فى النهاية للنفور من الدين الإسلامى، والبعد عنه وهو ما خططت له السلطات الشيوعية لإجلاء الساحة الفكرية، تمهيداً لبث الفكر الماركسى من خلال أيديولوجية شيوعية منظمة لإجلاء الساحة الفكرية، تمهيداً لبث الفكر الماركسى من خلال أيديولوجية شيوعية منظمة تهدف إلى نشر الفكر الألحادى وتحارب الإسلام، والمسلمين فى دينهم وعقيدتهم(٢).

ومن هذا المنطلق، تجدر بالباحث الإشارة إلى وثيقة سرية عن المخطط الشيوعى السوفيتى ضد الإسلام، ونشرته مجلة «العلم والدين» الروسية فى عددها الصادر أول يناير سنة ١٩٦٤ ما نصه(٣).

رغم مرور خمسين عاماً على الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى، وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة اشتراكية فى العالم الإسلامى، فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين فى الاتحاد السوفيتى صرحوا: إننا نواجه فى

---

(١) أحمد رائف - مستقبل الإسلام فى روسيا وما وراء النهر - مصدر سابق ص١٣٦

(٢) المرجع السابق، ص١٥٨

(٣) عبد المنعم النمر - مرجع سابق - ص١٢٨

١٦- نشر الأفكار الإلحادية وكل فكرة تضعف الشعور الدينى والعقيدة الدينية وزعزعة الثقة برجال الدين فى كل قطر إسلامى.

١٧- لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية (صلاة الجمعة - الحج) للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك فالثورة قبل كل شئ، هدم للقديم والمواريث الدينية جميعا.

١٨- إعلان أن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذى يعتنقه الناس لجهلهم، والدين الصحيح الذى يتلاقى مع الاشتراكية هو الاشتراكية، والدين الزائف هو الأفيون المخدر، وإلصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه.

١٩- تنشئة الإنسان الذى تريده الاشتراكية لبلوغ مآربها، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح، والدين الثورى، والدين المتطور، ودين المستقبل حتى يتم تجريد الإسلام الذى جاء به محمد من خصائصه، ومعالمه، والاحتفاظ فيه بالاسم فقط[١].

٢٠ - أخذنا بتعاليم لينين، ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكى خصماً عنيداً للدين ويحارب فكرته عن الآخرة وما ينتظر بعد الموت بالفردوس الذى تحققه الاشتراكية العلمية، والتى تحقق العدالة الاجتماعية التى هى الفردوس، وإذا وجد إنه من الضرورى مهادنة الدين وتأييده، وجب أن تكون المهادنة لأجل والتأييد بحذر على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين.

٢١- الاهتمام بالإسلام مقصود منه أولاً، استخدام الإسلام فى تحطيم الإسلام، وثانياً، استخدام الإسلام للدخول فى شعوب العالم الإسلامى.

٢٢- وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيتها من الشوائب وتحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن تستبدل به الاشتراكية.

٢٣- ستظل الاشتراكية فى نزاع دائم مع العقيدة الدينية ولن يستقر التحويل الاشتراكى الصحيح إلا بسيادة الاشتراكية على الدين، أى الاشتراكية الماركسية.

وبسرد هذه التعليمات ومحاولة قراءة متأنية للسطور وما بينها نجد أن المخطط الشيوعى كان يهدف إلى بث الفكر الماركسى الإلحادى بشتى الطرق فرسم مخططه على محورين أساسيين هما:

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٢

والمطلوب هو هدم الضمير الدينى، ولم يصبح ذلك صعبا بعد أن نجحنا فى جعل السيطرة، والحكم والسيادة للاشتراكية ونجحنا فى تعميم ما يهدم الدين من خلال القصص والمسرحيات - والمحاضرات - والصحف - والأخبار - والمؤلفات التى تروج الأخبار، وتهزأ بالدين، ورجاله وتدعو إلى العلم وحده وجعله الإله المسيطر.

٩- مزاحمة الوعى الدينى وطرده بالوعى العلمى(١).

١٠- خداع الجماهير بأن نزعم بأن المسيح اشتراكى فهو فقير واتباعه فقراء، وهكذا بالنسبة لمحمد فهو إمام الاشتراكيين وحارب الأغنياء والمحتكرين، وعلى هذا النحو نصور الأنبياء والرسل، ونبعد المقدسات الروحية والوحى، والمعجزات عنهم بقدر الإمكان، لنجعلهم بشراً عاديين، حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التى أوجدوها لأنفسهم وأوجدوها لهم اتباعهم المهووسون(٢).

١١- فى القرآن والتوراة، والإنجيل قصص، ولئلا نصدم الشعور الدينى للجماهير ونثيرهم على الاشتراكية، يجب أن نتقبل هذه القصص ونفسرها تفسيرا اشتراكيا ماديا، فقصة يوسف فى القرآن مثلا، يمكن تفسيرها تفسيراً ماديا تاريخيا، وما فيها من جزئيات يمكن أن نستفيد منها فى تعبئة الشعور العام ضد الرأسمالية والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين.

١٢- إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكى، وتجريد هذه القوى تدريجيا من روحها... الخ.

١٣- إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية، والأناشيد الحماسية، والوطنية والأغانى الوطنية والعسكرية والتنظيمات الحزبية، والمحاضرات المذهبية والوعود المستمرة برفع الإنتاج، ومستوى المعيشة، وإلقاء مسئولية التأخير، والانهيار الاقتصادى والجوع، والفقر، والمرض على الرجعية، والاستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين.

١٤- تحطيم القيم الدينية والروحية بإظهار ما فيها من خلل وعيوب وتحذير القوى المناهضة.

١٥- الهتاف الدائم ليل نهار بالثورة وأنها المنقذ الوحيد للشعوب من حكامها الرجعيين، والهتاف للاشتراكية بأنها هى الجنة والفردوس المنتظر للجماهير الكادحة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٩

(٢) المصدر السابق، ص١٣٠

فى انتشار وتثبيت الهوية الإسلامية والحفاظ على التقاليد والتعاليم والموروثات الإسلامية فى نشئة مسلمى وسط آسيا من خلال عدة محاور، منها:

ترسيخ المفاهيم الإسلامية الحقة فى نفوس الشعوب التى كانت حديثة العهد للإسلام كما أدت إلى تمسك المسلمين بهدفهم أمام الضغوط والمتغيرات التى كانت حولهم وهذه الطرق المختلفة قد شكلت فيما بينها سداً مانعاً فى نفوس المسلمين وأمام الغزو الفكرى الشيوعى وأيديولوجياته الإلحادية الهدامة.

كذلك يمكن القول بأن التأثير الأيديولوجى للروس فى المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا لابد وأن يراعى فئتين خضعتا للتأثير وهما:

أولاً: الفئة الأولى - التأثير على عامة الشعب بما فيهم رجال الدين.

ثانيًا: الفئة الثانية - التأثير على النخبة الحاكمة.

فبالنسبة للتأثير على رجال الدين وعامة الشعب فقد سبق الإشارة إليه بأن الدين الإسلامى هوالمكون الرئيسى للشخصية التركستانية بل هو القاسم المشترك فى حياتهم الاجتماعية والفكرية ومن ثم فإن التأثير العقائدى للأيديولوجية الشيوعية له وجود فى عقل بعض فئات المسلمين بوسط آسيا وإن كان الرجوع لممارسة الدين وشعائره بقوة وثبات سيحتاج لمزيد من الوقت يستعيد فيه المسلم توازنه وشخصيته وماضيه وهويته.

ويمكن القول فى النهاية إنه قد حدث تأثير أيديولوجي روسي على بعض فئات مسلمى وسط آسيا وخاصة الشباب.

أما بالنسبة للتأثير على النخبة الحاكمة وصانعى القرار السياسى فالأمر هنا يختلف تماما فهذه النخبة الحاكمة هى ذاتها النخبة التى كانت تجلس على كرسى الحزب الشيوعى فى بلدها وتعتنق أفكاره ومنفذه لسياسة السلطات الحزبية الشيوعية والموالية لها قلبا وقالبا، ثم أصبح كل منهم فجأة وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى رئيسا لبلده الحر المستقل ومطالبا من شعبه بالسير فى الاتجاه الإسلامى فى حين أن عقله متشبع بالفكر الاشتراكى الماركسى فكانت النتيجة اتجاه معظم هؤلاء الزعماء أى النخب الحاكمة لجمهوريات وسط آسيا الإسلامية تتجه إلى العلمانية التركية كنموذج للتطبيق، ورغم هذا لا ضرر من ذلك فالأيام كفيلة فى خلق جيل واعٍ، وقادر على إعادة الروح الإسلامية لسابق عهدها فى تلك البلدان، ويكفى الآن أن تسمع نداء الحق فى كل وقت، ومكان بلا خوف، ولا وجل.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

أولاً: هدم الدين بكل الوسائل المتاحة الظاهرة منها والباطنة والشريفة منها وغير الشريفة.

ثانيًا: استحداث النظام الاشتراكى باعتباره بديلا للدين وقادرا على إسعاد الشعوب وتحقيق التكافل، والعدالة الاجتماعية.

ولكن تبا لهذا الفكر المريض فالإسلام جزء من المكون الرئيسى للمسلم فالإيمان يسير فى دمه ويمتزج بوجدانه، ويكون عقيدته حتى أصبح جزءا من هويته الذاتية التى لا انفصام بها.

ومن ثم يمكن القول بوجود بعض مظاهر للتأثير الأيديولوجى للروس على بعض فئات مسلمى وسط آسيا والقوقاز دون الكل، فالإسلام فى تلك البلدان يمتزج بالسلوك الاجتماعى للشعوب هناك حتى يمكن أن يطلق عليه الإسلام الشعبى، لأن الإسلام كدين وتقاليد وعادات وعبادات، ومعاملات مازال قويا ويؤلف جزءا أساسيا من الحياة الاجتماعية للناس دون ضعف أو تراجع، فالمساجد أعيد بناؤها وأصبحت تمتلئ بالمصلين، وخاصة فى صلاة الجمعة، والطرق الصوفية منتشرة، وزيارة مزارات الأولياء الصالحين وأصبحت تقليداً دينيًا اجتماعيًا وبخاصة فى الارياف ومازال قويا والعادات والتقاليد الإسلامية مازالت تتبع وتحترم وتقدس.

وقوة الإسلام الظاهرة فى حياة الناس ذاتية التأثير وكذا التغييرات التى تحدث فى بقية العالم الإسلامى، وأن نهوض الإسلام، وتحديد اتجاهاته يصير التكهن به عسيرا، نظرا لامتزاج الإسلام بالقومية.

ولكن لا نغفل نقطة مهمة فى هذا الموضوع وهى أن معظم رؤساء الدول الإسلامية بوسط آسيا هم جميعا شيوعيون سابقون سارعوا إلى ركوب موجة الاستقلال والقومية، بعد أن سقطت المركزية نهائيا وأنهار الاتحاد السوفيتى، وإن كانت اتجاهاتهم فى النهاية ستسير فى اتجاه رغبة شعوبهم التى تتطلع لمزيد من الحرية الدينية، والرجوع لأصولهم الإسلامية التى حافظوا عليها طوال فترة الاحتلال القيصرى والشيوعى والنظام الماركسى الإلحادى المنهار بعد أن استخدم الشيوعيون كل الوسائل الثقافية والفكرية من أجل تشكيل الإنسان الذى يريدونه بعيداً عن الدين والقيم الكلية للأخلاق.

خلاصة القول:

من الواضح أن هناك دوراً فعالاً ومؤثراً قد لعبته الفرق الدينية والطرق الصوفية

الباب الثالث

الفصل الأول

مقدمة عن انهيار الاتحاد السوفيتى:

يعد انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال رابطة الدول المستقلة سنة ١٩٩١، حدثاً مهمًّا غيَّر خريطة العالم فى بانهيار الامبراطورية الروسية ذات المساحات الشاسعة والقوميات المتعددة، والثقل السياسى الاجتماعى والفكرى والعسكرى، فقد اتسعت دائرة الحوار بين المتخصصين، والمهتمين بالشئون الآسيوية، قد أرجع بعضهم أن من أسباب نهاية الاتحاد السوفيتى هو انهيار الشمولية الشيوعية، وقوة الضغوط الغربية، وقد جاء ذلك متزامنا مع منطق الفكر الجديد الذى كان يتمثل فى ثورة البريسترويكا[١]، والجلاسنوست[٢]، وهو ذلك المتغير الذى حال دون قمع البعث القومى وتصفية الحركات الانفصالية أو الداعية إلى ذلك، وإذا كانت الأسباب سالفة الذكر تمثل الأسباب الشكلية، والقوية للانهيار فإن هناك أسباباً موضوعية أخرى، أثرت فى سرعة الانهيار، مثل الأسباب الأقتصادية، وظهور الأيديولوجيات الدينية والعرقية والقومية التى كانت مختفية أمام الأيديولوجية الاشتراكية الشمولية، فبانهيار وفشل الأيديولوجية الشمولية ظهرت تلك الأيديولوجيات مطالبة بحقوقها القومية والتاريخية فكانت هذه الأسباب والأسباب الأخرى التى سنوضحها فى متن هذا الموضوع القوة المؤثرة فى التعجيل بانهيار الامبراطورية الروسية، التى بدأت وعاشت بين ثورتين، الثورة الأولى عام ١٩١٧، وهى ثورة ذاتية دون تدخل طرف خارجى وتم فيها إنشاء الاتحاد السوفيتى، والثورة الثانية، وهى ثورة ذاتية أيضا، وكانت عام ١٩٩١ وتم بها انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال دول رابطة الكومنولث كرابطة اتحادية ومجموعات عرقية ودول مستقلة.

ولمزيد من الدراسة ينقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال دول الكومنولث.

المبحث الثانى: دول الكومنولث ورؤية مستقبلية.

---

(١) (١س) البريسترويكا: هى كلمة روسية المقصود بها التغيير وإعادة البناء.

(٢) الجلاسنوست: هى كلمة روسية المقصود بها المكاشفة والمصارحة.

(١)،(٢) بوريس جاكلينكس - البريسترويكا والعاصفة - القاهرة - مدبولى - سنة ١٩٩٨، ص١١

الباب الثالث
أوزبكستان نموذجًا

الفصل الأول
انهيار الاتحاد السوفيتى وآثاره

المبحث الأول : أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال دول الكومنولث.

المبحث الثانى : دول الكومنولث ورؤية مستقبلية.

التى ساعدت كذلك بصورة أو بأخرى فى موضوع الانهيار والتخلف التقنى الهائل لروسيا قياسا بالتقدم التقنى الغربى، فكانت له انعكاساته المباشرة على الوضع الاقتصادى[1] فأعباء المجمع الصناعى الحربى والمخصص له ميزانية ضخمة لإنتاج معدات عسكرية، وحربية باهظة التكاليف، إضافة إلى تكاليف البرامج الفضائية سواء فى الميادين المدنية أم العسكرية وسباق التسلح، وتكلفة البرامج النووية قد أدى كل ذلك إلى استنزاف صناعة الآلات والمعدات الخفيفة، وكذا تأثرت الصناعات الغذائية والزراعية، ولذا زادت الأعباء المادية للعاملين وظهرت مؤشرات ملحوظة على تدهور مستوى المعيشة لعامة الشعب، وقد زادت حدة المشكلة بانخفاض قيمة الروبل وعدم قيام الدولة بتقديم الخدمات للمواطنين، ومن الأسباب الموضوعية كذلك الحرب فى افغانستان تلك الحرب التى استمرت تسع سنوات والتهمت موارد هائلة من ميزانية الاتحاد السوفيتى مما تسبب فى توجيه ضربة شديدة ومؤثرة إلى الاقتصاد السوفيتى، رغم خسارة الحرب مما زاد من الغليان الصامت فى المجتمع وتصاعدت نبرة السخط على الأوضاع القائمة، ومن أهم الأسباب الموضوعية فى عملية الانهيار تتمثل فى فشل الأيديولوجية الشيوعية فى المجتمعات الاشتراكية فشلا شاملا وذلك أن هذه الأيديولوجية قد تحولت إلى مؤسسات من المفترض أن تقوم على نشر وتجسيد هذه الأيدولوجية والحفاظ عليها، بينما أصبحت هذه المؤسسات فى نظر الجماهير «أدوات كبت وقهر» وأصبح البناء المؤسسى ينطوى على قدر كبير من الكبت مصدره الادعاء بأن كثيرا مما تتطلع إليه الجماهير انحراف عن المبدأ الأيديولوجى السليم الذى يؤدى فى النهاية إلى المستقبل المنشود مستقبل الاشتراكية والشيوعية[2].

وفى نفس الوقت تفشى الفساد وظهرت طبقة المنتفعين بالمؤسسات الاشتراكية، وأصبح التخطيط الاشتراكى ينطوى على عملية إفقار ولا ينطوى على عملية إثراء، ذلك لأن المؤسسات الوحيدة التى تحرس وحدة الاتحاد السوفيتى ومبادئه الفردية ككيان هى الحزب والمخابرات والجيش فقط وهى مؤسسات منظور لها على أنها أدوات قهر وكبت[3].

---

(١) رسلان حسبولاتوف - المواجهة الدامية - ترجمة أبو بكر يوسف - القاهرة. مركز الأهرام - سنة ١٩٩٦، ص١١

(٢) المرجع السابق، ص١٢

(٣) طه عبد العليم - مجلة السياسة الدولية - القاهرة - مركز الأهرام - سنة ٩٢، ص١١٤

المبحث الأول

أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال دول الكومنولث

فى ضوء مؤشرات الدراسات التى تناولت قضايا الاتحاد السوفيتى والتى كانت تتنبأ بسقوطه وانهياره وقد حدث، ففى خلال السنوات الخمس الأخيرة من عمر الاتحاد السوفيتى، وقعت أحداث عظيمة ومتسارعة على ساحة الإمبراطورية الضخمة التى يطلقون عليها «آخر الإمبراطوريات» وكانت معظم هذه الأحداث تفضى إلى تغييرات جذرية أحيانا فى هياكل هذه الامبراطورية، وفى سياستها وفى أيديولوجيتها التى ثبتتها ودافعت عنها منذ زمن طويل بكل ما أوتيت من قوة، ومن هذه الأحداث حركة انفصال الكتلة الشرقية الأوربية عن الاتحاد السوفيتى، فكانت بداية الإرهاصات الأولى لتفكك الاتحاد السوفيتى السابق الذى لم يتدخل فى حركة التضامن التى حدثت فى بولندا مركز حلف وارسو، وقد سرت حركة الانفصال عن موسكو من الكتلة الشرقية إلى داخل الاتحاد السوفيتى[1].

وينقسم هذا المبحث إلى:

المطلب الأول: أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى.

المطلب الثانى: مراحل انهيار الاتحاد السوفيتى.

أولا: المطلب الأول: أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى:

أ - أسباب داخلية.　　ب- أسباب خارجية.

أ - الأسباب الداخلية:

بالطبع كانت هناك أسباب موضوعية وذاتية لما حدث، ولكن لم يكن من المحتم أن تفضى هذه الأسباب الموضوعية إلى انهيار هذه الدولة العظمى، لو أن السلطات الاتحادية سارعت باتخاذ خطوات حازمة، ومدروسة وسريعة؛ ولكن ردود الأفعال من المسئولين قد جاءت ضعيفة ومتخاذلة ازاء المشاكل التى أدت إلى تفاقم الموقف[2]، وساعدت على تدهور هيبة الدولة، ومن الأسباب الموضوعية

---

(١) ى شيبيلوفا - البنية الاجتماعية لبلدان الشرق - موسكو - أكاديمية العلوم السوفيتية، سنة ١٩٨٨ - ص٢٢٢

(٢) سامى عمارة - قريبًا من الكرملين - القاهرة - دار الهلال - سنة ٢٠٠٠، ص١٨

إضعاف الاتحاد السوفيتى الذى يمثل المعسكر الشرقى ويقوده ضد المعسكر الغربى، ونتيجة المواجهة العسكرية السياسية بين حلفى وارسو وشمال الأطلنطى وتعادل موازين القوى العالمية، ومواقع الاتحاد السوفيتى القوية فى العالم التى لم تسمح للدول الغربية باستغلال تفوقها التقنى على بعض شعوب العالم، بل ظلت القيم الاجتماعية والعقائدية للاشتراكية ترهب الغرب(١).

وقد استغل ساسة الغرب ضعف الاتحاد السوفيتى وزعيمه جورباتشوف فى إحراز بعض المكاسب على الصعيدين السياسى والعسكرى فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات بأن استطاع الغرب بذكاء ودهاء سياسى خفض الأسلحة النووية والتقليدية للاتحاد السوفيتى، وتوحيد ألمانيا وسحب القوات السوفيتية من وسط أوروبا وتفكيك مجلس التعاون الاقتصادى (الكوميكون) وهو المجلس الذى يضم أغلب الدول الاشتراكية، وانهيار كافة مؤسساته، وانتهى الأمر بسقوط حلف وارسو والذى كان يمثل الثقل التوازنى الشرقى، لحلف الناتو الغربى(٢).

ويلاحظ أن كل ذلك قد عاد بفوائد عديدة على دول الغرب فى مختلف النواحى السياسية والعسكرية، والاقتصادية، والفكرية حيث أصبح لا بديل للاشتراكية إلا الرأسمالية والتى سارع زعماء موسكو إلى السعى لتحقيقها، من خلال إقامة علاقات قوية مع الغرب، وإن دل ذلك على شئ فإنه يدل على جهل كامل لقيادة الكرملين بطبيعة السياسة الخارجية للدولة، التى لا تركز على فهم أيديولوجيات الدول الأخرى بقدر ما تركز على مصالحها الشخصية(٣).

ثانيا: المطلب الثانى: مراحل انهيار الاتحاد السوفيتى:

وتنقسم هذه المراحل إلى قسمين:

١- مرحلة إعادة البناء والمصارحة للاتحاد السوفيتى (البريسترويكا) (الجلاسنوست).

٢- الانهيار الدستورى، وتفكك الاتحاد السوفيتى.

أولاً: مرحلة إعادة البناء للاتحاد السوفيتى:

والتى عرفت بالتغيير، وإعادة البناء (البريسترويكا) (٤) وهى محاولة من

---

(١) فوزى طايل - مرجع سابق، ص٢٧٨

(٢) رسلان حسبولاتوف - مرجع سابق - ص٢٠

(٣) ممدوح لطفى - انهيار امبراطورية شيوعية - القاهرة - الدار المصرية للطباعة والنشر - سنة ٩٢ - ص٦٠

(٤) عبد المنعم ابراهيم البدراوى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى القوقاز والأزهر، ص١٢١

لذا فقد بدلت المؤسسات الايديولوجية الصحيحة إلى نقيضها وأصبحت هذه الأيديولوجية ترمز إلى الكبت والقهر والنتيجة هى تشويه الايديولوجية وافتقارها لرسالتها الأصلية[١].

وقد ترتب على غياب الأيديولوجية الصحيحة القائمة على البعد الطبقى انتعاش أيديولوجيات أخرى مثل الأيديولوجية الدينية والأيديولوجية العرقية والأيديولوجية القومية، وأصبحت هذه الأيديولوجيات تمثل عوامل تفكيك للاتحاد السوفيتى، وتقسيما للمجتمع لأنها تفترض أن جميع الذين ينتسبون إلى دين معين أو قومية معينة على مستوى مجتمع بأسره إنما يشكلون وحدة فى مواجهة الذين ينتسبون إلى دين آخر وقومية أخرى، وهذا ما يعرف بالتقسيم الرأسى[٢] ونتج عن كل هذا تصدع فى البناء الأيديولوجى السوفيتى، مما دفع جوربا تشوف إلى التدخل وتقديم نظريته البرويسترويكا والجلاسنوست[٣] والتى أدت إلى كشف كل جوانب الضعف والتخاذل فى البناء الشيوعى، خاصة بعد أن أصبحت حرية الصحافة بمثابة المعول القوى والذى يطرق ويهدم فى جدار الاشتراكية دون خوف أو وجل، ومن تلك الأسباب التى أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتى محاولة انقلاب ١٩ أغسطس سنة ١٩٩١ والذى عرف باسم انقلاب لجنة الطوارئ، وهى محاولة الانقلاب التى قادها نائب الرئيس السوفيتى جينادى ينايف مع مجموعة من قادة الدولة لعزل الرئيس ميخائيل جورباتشوف بمعاونة بعض وحدات خاصة من الجيش للسيطرة على أجهزة الدولة، وإدارة شئون البلاد وهى مجموعة كانت ترمى إلى الحفاظ على هيبة الدول والمؤسسات الشيوعية، والتمسك بالاشتراكية الشيوعية والحزبية وتم تدارك الأمر من أجهزة الدولة، وفشل الانقلاب وتمت محاكمة مرتكبيه وقد أدى هذا الانقلاب إلى انهيار الاتحاد السوفيتى[٤].

ب- الأسباب الخارجية:

وتعد الضغوط الغربية من اسباب انهيار الاتحاد السوفيتى وذلك فيما يعرف بما يسمى «نظرية المؤامرة» وهى تعنى أن الغرب له مصلحة فى ذلك فكان يبغى دائما

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥

(٢) محمد سيد احمد - السياسة الدولية - مرجع سابق، ص١١٩

(٣) رسلان حسبولاتوف - مرجع سابق، ص٢٠

(٤) رسلان حسبولاتوف - مرجع سابق، ص٢٠

سنة ١٩٨٩ وظهور البرلمان السوفيتى الجديد الذى يرأسه جورباتشوف والذى أصبح أكثر صراحة ومكاشفة وحرية، إذ نادى بعض الأعضاء بإدخال تعديلات فورية على دستور الاتحاد السوفيتى، وفى هذه الأثناء تقدم نواب دول البلطيق باقتراحين كان لهما أسوأ الأثر وهما:

الاقتراح الأول: يطالب بمنح استقلال اقتصادى لدول البلطيق الثلاث وهى: لاتفيا - لتوانيا - استوانيا

وقد قوبل هذا الاقتراح بالرفض والهجوم الشرس على نواب دول البلطيق وإتهامهم بالتعصب والقومية والسعى إلى هدم الاتحاد السوفيتى، ولما كانت جلسات المجلس تذاع تليفزيونيا على العالم، فقد أثارت الاتهامات الموجهة لنواب البلطيق غضب الأهالى فى بلادهم فاندلعت المظاهرات فى عواصم دول البلطيق الثلاث احتجاجا على البرلمان السوفيتى الرجعى[١].

أما الاقتراح الثانى لنواب البلطيق فكان يطالب بعقد معاهدة جديدة بين دول البلطيق والاتحاد السوفيتى، نظرا لأن المعاهدة التى قام عليها الاتحاد السوفيتى عام ١٩٢٢ لم يوقعها ممثلو دول البلطيق الذين لم ينضموا إلى الاتحاد السوفيتى إلا عام ١٩٣٩.

وقد تبنى الرئيس السوفيتى هذا الاقتراح وطالب بضرورة صياغة معاهدة اتحادية جديدة[٢] فكان موقف جورباتشوف يعنى من وجهة النظر القانونية أن أعلى سلطة فى الاتحاد السوفيتى تشكك فى صحة وشرعية الدستور السوفيتى، وكان لهذا الموقف الأثر الأكبر والفعال فى تفكير زعماء البلطيق فى الحصول على مزيد من المكاسب السياسية، فركزوا جهودهم على السعى للحصول على الاستقلال الكامل، والخروج من الاتحاد السوفيتى، بينما ظلت فكرة المعاهدة الاتحادية الجديدة تشغل الأوساط السياسية والحزبية فى أركان الاتحاد السوفيتى وانصرف الجميع عن القضايا الداخلية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية وسبل الخروج منها، وبتفاقم الأزمات والأوضاع الداخلية عمت المظاهرات عواصم دول البلطيق وغيرها وأوزبكستان - كازخستان - أذربيجان - أرمينيا - جورجيا خلال عامى ٨٩-١٩٩٠ وتصدت لها القوات المسلحة بكل شدة وعنف، ونتيجة إراقة الدماء والقتلى الكثيرين من المتظاهرين، وتعرض جورباتشوف وقادة الجيش لانتقادات عنيفة من الصحافة مما اربكه هو ومساعدوه فى اتخاذ القرارات المصيرية.

---

(١) رسلان خسبولاتوف مرجع سابق، ص١٤

(٢) ممدوح لطفى - المرجع السابق، ص٢٠١

جورباتشوف ومعاونيه فى معالجة الأمور المتفاقمة بعد أن أدركوا شدة الضربات التى توجه للنظرية الماركسية اللينينية، والتى تقوم على أساسها مجتمعات الاتحاد السوفيتى، والتى لو استمرت هكذا ستؤدى لا محالة إلى تفكيك الاتحاد السوفيتى وانهياره بالكامل، فكان لابد من التدخل لكشف الاخطاء بكل صراحة وجرأة فى مسيرة الاشتراكية وتعديل المسار السياسى والاقتصادى لها ثم جاءت الجلاسنوست لتكشف الأخطاء والحقائق أمام المجتمع، وهى محاولات من الرئيس جورباتشوف للعلاج العملى والنظرى للاتحاد السوفيتى المتداعى وإعادة بناء الديموقراطية وقد تمثلت هذه المرحلة فى الآتى[1]: إصدار قانون الانتخابات يحاكى النظام السياسى الغربى، وتم إجراء انتخابات برلمانية سنة ١٩٨٩ لتأليف مجلس تشريعى ذى سلطات واسعة يشرع ويراقب كافة السلطات بما فيها السلطة التنفيذية، وقد قام المجلس بإصدار قرارات تحقيق فى قضايا فساد يتهم فيها مساعد رئيس الدولة، ثم يطالب الرئيس بإقالة رئيس الوزراء وحاكم مدينة موسكو وأصبح رئيس الدولة عاجزا عن تنفيذ مطالب البرلمان ولا يستطيع فى ذات الوقت حل البرلمان وقد تم اتخاذ عدة إجراءات، منها:

١- مشروع قانون يقضى بتعديل الدستور، ليرفع منه السلطات القيادية التى يتمتع بها الحزب الشيوعى.

٢- إصدار قانون تحويل السوق الاشتراكية السوفيتية إلى نظام السوق الحر، كمطلب المؤسسات الدولية تمهيدا لتقديم المساعدات الاقتصادية.

٣- اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٩١ لتقرر التخلى عن الشيوعية الماركسية اللينينية.

وقد حاول جورباتشوف ومساعدوه القيام بعملية الاصلاح الاقتصادى، والسياسى للامبراطورية المتداعية فقد أشركوا العلماء وخاصة علماء الاقتصاد، الذين توصلوا إلى ضرورة إجراء تغييرات جذرية فى القوانين، والقيادات المختلفة، وبأهمية الملكية الخاصة وجدوى الاقتصاد المختلط[2].

وشرع جورباتشوف فى تنفيذ ما سمى بثورة الكوادر فعزل الكثير من القيادات الحزبية والمؤسسية المختلفة، وانطلقت الصحافة فى ظل البريسترويكا والجلاسنوست ضد بعض أمناء اللجنة المركزية وانتقدتهم بشدة، وبعد انتخابات

---

(١) سامى عمارة - قريبا من الكرملين - القاهرة - دار الهلال - سنة ٢٠٠٠ ص٢٣

(٢) المرجع السابق، ص٢٥

جمهوريات الاتحاد السوفيتى. إلا أن التداعيات تلاحقت بصورة توحى بحتمية الانهيار ففى يوم ١٩ أغسطس ١٩٩١ حدث انقلاب ضد جورباتشوف لعزله وإدارة شئون البلاد، والحفاظ على المكاسب الاشتراكية والحزبية[١].

إلا أن هذه المحاولة الانقلابية قد منيت بالفشل، وعاد جورباتشوف رئيسا للاتحاد السوفيتى وزاد الصراع والعداء بينه، وبين يلسن رئيس روسيا الاتحادية لاختلافهم فى الفكر الحزبى وطريقة إدارة البلاد[٢].

وهو الاجتماع الذى تم فيه اتخاذ قرار سرى بإلغاء الاتحاد السوفيتى ووقع عليه زعماء روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا وإنهاء العمل بمعاهدة سنة ١٩٢٢ التى تربطهم بالاتحاد السوفيتى.

وبعد هذا كله توالت مراحل التغيير بسرعة دون توقف فقامت مولدافيا، وأذربيجان وأوزبكستان، وطاجكستان، وأرمينيا، وتركمنستان، وأوكرانيا بالمطالبة بالاستقلال كما قامت دول البلطيق الثلاث بإعلان الاستقلال الفعلى فى سبتمبر ١٩٩١م.

تحليل أسباب الانهيار:

إذا كان الدكتور بنجسين Bennigsen المتخصص فى الدراسات السوفيتية قد توقع انهيار الاتحاد السوفيتى، إلا أنه لم يتصور أن تتحقق هذه النبوءة بمثل هذه السرعة خلال فترة قصيرة.

وخلال السنوات الخمس الأخيرة من عمر الاتحاد السوفيتى وقعت أحداث كبيرة متسارعة على مساحة هذه الإمبراطورية الضخمة التى يطلقون عليها «آخر الإمبراطوريات». وكان الكتاب، والصحفيون، والمحللون السياسيون، والمعلقون، بل العالم أجمع يلهثون وراء هذه الأخبار الكثيرة المتلاحقة التى كانت تفضى إلى تغييرات جذرية أحيانا فى هياكل هذه الإمبراطورية وفى سياستها وفى أيديولوجيتها التى تبنتها زمنا طويلا رغم استمراريتها فى الداخل، والخارج بكل ما أوتيت من قوة.

إنها أحداث تشبه الزلزال الذى يهز أركان المجتمع من أساسه، وقد بدأت تدريجيا كالأتى:

---

(١) المرجع السابق، ص١٦

(٢) سامى عمارة - المرجع السابق - ص٧٠

ثانيًا: الانهيار الدستورى وتفكك الاتحاد السوفيتى:

وكان نتيجة هذه الأحداث ورغبة قادة دول البلطيق وروسيا البيضاء وقادة موسكو فى إباحة الملكية الفردية الخاصة، وإقامة اقتصاد مختلط قادر على المنافسة، وكان ذلك من شأنه أن يفتح آفاقًا واسعة أمام المواطنين، إلا أن جورباتشوف رفض ذلك وظل متمسكًا بالملكية العامة ومبادئ الاشتراكية[1].

وقد نتج عن هذا التصرف زيادة أعداء جورباتشوف داخل حزبه، واتهمت مجموعة كبيرة من قادة المنظمات الحزبية فى الأقاليم جورباتشوف بالتخريف، وقرروا تشكيل حزب شيوعى لجمهورية روسيا الاتحادية بلجنة مركزية مستقلة، وتم تنفيذ ذلك بالفعل مما خلق معه صراعا جديدا وقوة حزبية قوية ضد جورباتشوف تطالب بالإصلاح.

وقد ظهرت فى داخل الحزب الشيوعى الروسى الجديد نبرات عن القومية والشعوبية مدعية أن الشعوب السوفيتية الأخرى تنهب روسيا سواء أكانت شعوب أكرانيا أو بيلاروسيا أو كازاخستان أو جورجيا أو أرمينيا... أو غيرها إلخ، وطالب هؤلاء الشيوعيون الروس بخروج هذه الجمهوريات من الاتحاد السوفيتى لكى تتخلص روسيا من هذا العبء الكبير.

وراحت هذه الدعاوى تتصاعد فى الجمهوريات الاتحادية الأخرى، وخاصة فى جمهوريات البلطيق صاحبة الدعوى الأولى فى هذا الشأن، مما سارع فى توقع طلب النزعات الانفصالية.

وعلى الصعيد السياسى، تعرض جورباتشوف لهجوم من يلسن رئيس روسيا الاتحادية وأنصاره بعد أن تمكنوا من استصدار "إعلان سيادة الاتحاد الروسى" من البرلمان الروسى الجديد فى أولى جلساته فى صيف ١٩٩٠، وسرعان ما صدرت إعلانات مماثلة من برلمانات الجمهوريات الاتحادية.

وبعد أن أدرك جورباتشوف خطورة الموقف وحقيقته أرسل إلى قادة الجمهوريات الاتحادية مشروعه الخاص «بالمعاهدة الاتحادية» والتى تمنح الجمهوريات الاتحادية سلطات أوسع، إلا أن رئيس روسيا الاتحادية رفض التوقيع بحجة أن هذه المعاهدة تنتقص من حقوق روسيا، وقد حذا حذوه رئيس أوكرانيا بينما رفض زعماء دول البلطيق الثلاث التوقيع باعتبارهم غير معنيين بهذه المعاهدة وحدد يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩٩١ موعدا لتوقيع المعاهدة من باقى

---

(١) رسلان حسبولاتوف - مرجع سابق، ص١٥

وصرح الزعماء الثلاثة بأنهم يحترمون القانون الدولى وحقوق الإنسان والحريات الدينية والثقافية، ويلتزمون بأهداف ومبادئ الأمم المتحدة ومجلس الأمن. وينوون إقامة سيطرة موحدة على الأسلحة النووية بهذه الدول الثلاث، وتشكيل قيادة عسكرية موحدة.

٤- وفى مساء يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٩١م أعلن الرئيس السوفيتى ميخائيل جورباتشوف استقالته من منصبه كرئيس للاتحاد السوفيتى عبر شاشات التليفزيون على العالم أجمع، معلنا بذلك انهيار قلعة الشيوعية فى العالم وزوال الاتحاد السوفيتى من على خريطة العالم السياسية(١).

وتدافعت دول العالم الواحدة تلو الأخرى للاعتراف بدول الكومنولث، وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها وعقد الاتفاقيات، والعقود معها فى جميع المجالات. وسارعت بعض دول العالم لإحكام نفوذها وسيطرتها عليها لاستقطابها فى هذا الاتجاه أو ذاك وتنافست دول عديدة فى الشرق والغرب كل واحدة تريد نفوذا أكبر أو تريد امتيازا أقوى(٢).

وقُبِلَت عضوية الجمهوريات الإسلامية كل على حدة فى فترات متلاحقة فى منظمة الأمم المتحدة ابتداء من شهر مايو ١٩٩٢.

وهكذا تحررت الجمهوريات الإسلامية الست من النظام الشيوعى البغيض ونالت استقلالها وحريتها بعد أن كان النظام المقيت يكبل حركتها ويمتص خيراتها ويكبت أبناءها، اندفع المسلمون بعد أن نالوا حريتهم فى هذه الجمهوريات إلى بناء الجوامع والمساجد، ورمموا المتهدم منها. وقاموابنباء المدارس والمعاهد الدينية والمراكز الإسلامية سواء بعون من الدول الإسلامية أو بالجهود الذاتية يدفعهم إلى ذلك حبهم الجارف للإسلام.

وبدأ رجال الدين الإسلامى فى هذه الجمهوريات ينسقون شئونهم الدينية علانية دون خوف أو فزع كما كان يحدث فى السابق وشرعوا فى تنظيم الندوات الدينية والإشراف على المساجد وعلى تعليم الشباب علوم الدين وتأهيل الخطباء والأئمة والوعاظ. وأصبح الناس يمارسون الشعائر الدينية علانية دون خوف أو بطش من أحد، واجتهد الدعاة فى تبصير المسلمين بأمور دينهم واستعادت المساجد دورها فى نشر الهداية الإسلامية والإشعاع بنور الإسلام.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠

(٢) المرجع السابق، ص٣١٦

١- الإرهاصات الأولى لتفكك الاحاد السوفيتى السابق تكمن فى عدم تدخل موسكو فى حركة التضامن التى حدثت فى بولندا مركز حلف وارسو. وقد سرت حركة الانفصال عن موسكو من الكتلة الشرقية إلى داخل الاتحاد السوفيتى نفسه، أما علامات التفسخ الأولى للإمبراطورية، فقد بدأت من دول البلطيق الثلاث ليتوانيا، ولاتفيا، واستونيا التى طالبت بالاستقلال عن الاتحاد السوفيتى وذلك فى سبتمبر ١٩٩١[١]. وقد بدأ التأييد فى شكل اعتراضات من المجموعات الشعبية فى البداية.

وخاف الحكام الشيوعيون فى تلك الجمهوريات من هجوم موسكو كالعادة، فلم يتحركوا مع رغبة الشعب، ورغم ذلك دخلت حركات الانفصال عن موسكو فى صورة حق يطالب به من قبل الشعب، وقد بارك الجيش، والمخابرات السوفيتية هذه المحاولة الانقلابية إلا أن مجموعة الانقلاب لم تتمكن من تحقيق أى نجاح خلال ثلاثة أيام من الانقلاب بسبب عدم التآلف بينها من ناحية، وبسبب مقاومة الشعب، وبوريس يلسين وبعض القيادات من ناحية أخرى. وعاد جورباتشوف من منتجعه بالقرم، وقام بفصل أعضاء الانقلاب، وتحويلهم للمحاكمة.

٢- وبعد هذا كله توالت مراحل التغيير بسرعة دون توقف، فقامت مولدافيا، وأذربيجان وأوزبكستان، وطاجكستان، وأرمينيا، وتركمانستان، وأوكرانيا بالمطالبة بالاستقلال كما قامت دول البلطيق الثلاث بالاستقلال الفعلى فى سبتمبر ١٩٩١م.

٣- وفى ٨ ديسمبر ١٩٩١م اجتمع رئيس جمهورية روسيا بوريس يلسين، ورئيس جمهورية أوكرانيا ليونيد كرافتشوك ورئيس مجلس السوفيت الأعلى فى بيلاروسيا ستانسلاف شوشكيفيتسن لمدة يومين اثنين فى مدينة برست بروسيا البيضاء، وقرروا إنشاء كومنولث جديد من هذه الدول السلافية الثلاث. وإلغاء معاهدة سنة ١٩٢٢م التى تأسس بموجبها الاتحاد السوفيتى، وأعلنوا أن الاتحاد السوفيتى لم يعد له وجود من الناحية الواقعية، ومن وجهة نظر القانون الدولى. وأن هذا الكومنولث اتخذ من مدينة مينسك عاصمة روسيا البيضاء عاصمة له بدلا من العاصمة السوفيتية موسكو. كما ناشدوا فى اجتماعهم كل دول الاتحاد السوفيتى الأخرى سرعة الانضمام إلى هذا الكومنولث[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٢

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٢

المبحث الثانى

الكومنولث الإسلامى ورؤية مستقبلية

مقدمة:

من المسلَّم به فى دستور الاتحاد السوفيتى أنه قام على أساس الوحدة الطوعية للقوميات والجمهوريات والأقاليم والمناطق التى تألف منها.

إلا أن الثوابت التاريخية تدل على غير ذلك بعد أن أثيرت علامات استفهام حول الدعوة إلى (البعث القومى) أو النزعة الاستقلالية عن المركز الروسى وهذا ما تمخضت عنه نتائج مؤتمر ألما اتا المنعقد فى كازاخستان يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٩١ ثورة سلمية غيرت مجرى التاريخ فى وسط آسيا، والتى وقع عليها رؤساء إحدى عشر دولية هى: (روسيا - روسيا البيضاء - أوكرانيا - أرمينيا - مولدافيا - أذربيجان - طاجكستان - أوزبكستان - كازاخستان - تركمنستان - قيرغيزيا) والتى تضمنت استقلال الجمهوريات المشاركة فى إطار حدودها الحالية، وإلغاء الاتحاد السوفيتى، وإنشاء رابطة الدول المستقلة[١].

مما دعا الرئيس السوفيتى ميخائيل جورباتشوف فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٩١ لإعلان استقالته كرئيس للاتحاد السوفيتى ليعلن زوال هذا الاتحاد من الخريطة السياسية للعالم.

ومن بين جمهوريات رابطة الدول المستقلة توجد ست جمهوريات إسلامية تقع خمس منها فى آسيا الوسطى وهى: (أوزبكستان - كازاخستان - تركمنستان - قيرغيزيا - طاجكستان) وواحدة فى القوقاز وهى أذربيجان، ويشكل المسلمون الأغلبية المطلقة من سكان تلك الجمهوريات عدا كازاخستان ويبلغ عدد المسلمين فى دول الرابطة حسب إحصاء سنة ١٩٩٠ ستة وخمسين مليون نسمة ويشكلون حوالى ٨٠٪ من عدد السكان.

ومن الناحية الجغرافية فإن هذه الدول تشكل تلاحما طبيعيا من الناحية الجغرافية وهى تلاحم وتلاصق كلا من إيران وتركيا وباكستان وأفغانستان، وينتمى مسلمو الجمهوريات الست إلى ثلاث مجموعات عرقية هى[٢]:

---

(١) المرجع السابق، ص١٥١

(٢) محمد السيد سليم - مجلة السياسة الدولية - مرجع سابق - ص١٥٠

واستعادت هذه الجمهوريات لغاتها القومية التى أهملت فى الماضى بسبب البطش الشيوعى الغادر. وبدأت الاهتمام بتدريس اللغة العربية لغة القرآن الكريم والمدخل الرئيسى والصحيح لفهم علوم الدين الإسلامى، وشرعت فى حركة بعث إسلامى صحيح من جديد بعد كبت دام ثلاثة أرباع القرن تقريبا فى ظل حكم شيوعى بغيض، سبقه حكم روسى قيصرى لا يقل عنه سوءا، تفاوتت فيه البلاد الإسلامية فى المدة التى ظلت فيها تحت حكمه البائد، وهكذا تحررت الإرادة الإسلامية فى هذه البلاد، وأصبحت هذه الدول تمثل رصيدا كبيرا يضاف إلى صرح الدول الإسلامية... والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.

أما الاحتمال الثانى فيرى احتمال بعث فكرة إحياء الإمبراطورية الروسية خاصة بين الدول الإسلامية والدول التى استمرت تحت حكم السلطات القيصرية ثم الروسية واندمجت فيها إلى حد كبير.

أما الاحتمال الثالث فهو يتعلق بإنهيار الرابطة وقيام الصراع فيما بينها نتيجة بعض الصراعات القائمة بين بعض أقطارها مثل الصراع بين (أذربيجان - وجورجيا - ومولدافيا) والخلاف على الحدود بين روسيا وكازاخستان وأوكرانيا، إلا أن الدراسة قد توصلت إلى أهم النتائج التى جعل من دول الرابطة دولا ذات سيادة وتفاعلية فى المجتمع الدولى، وهذه النتائج هى قدرة هذه الدول على إصلاح مسارها الاقتصادى والقدرة على تجاوز الكارثة الاقتصادية التى كان من المحتمل أن تكون نتيجة انهيار القطاع الاقتصادى القديم وغياب نظام اقتصادى جديد.

إلا أن دول الكومنولث وعلى رأسها أوزبكستان، استطاعت أن تضع برامج إصلاحية للاقتصاد الوطنى دفع بها إلى الاستقرار نتيجة انتهاجه للنظام الرأسمالى الديمقراطى على النمط الغربى، ومع اندماج دول الرابطة فى النظام الاقتصادى العالمى، فإن هناك قيودا تفرضها التطورات الاقتصادية الداخلية والعلاقات الاقتصادية البينية، إضافة إلى المدة التى قد تستغرقها عملية الإصلاح الاقتصادى، وموقف الدول الغربية الدائنة، الأمر الذى يؤكد أن الاستقرار الاقتصادى لدول الرابطة مرهون بمدى تنفيذ البرامج الاصلاحية الداخلية وموقف الدول الخارجية التى قد تساعد فى زيادة فرص التواجد الغربى والأمريكى فى تلك الدول نظرا لأن هذه الأخيرة هى القادرة على حماية واستقرار الاقتصاد الغربى لدول الرابطة.

ومن هذا المنطلق كان لزاما علينا تقديم معلومات وبيانات تعريفية عن دول الكومنولث الإسلامى لبيان قدراتها المادية، والطبيعية ومدى امكانية انطلاق تلك الدول وفتح أبواب العلاقات الدولية بصفة عامة والعربية والإسلامية بصفة خاصة، ومن ثم سيسرد الباحث دول الكومنولث الإسلامى الست من حيث اسم الدولة والعاصمة والمساحة والسكان واللغة ومختلف البيانات الأخرى التى تبين الإمكانيات المادية والبشرية والفنية. وهى)أوزبكستان - قازاخستان - طاجكستان - تركمنستان - قزاغستان - أذربيجان)[1].

لقد عكف الباحثون والمتخصصون، منذ استقلال تلك الدول على وضع النظريات والفروض نحو مستقبل دول الكومنولث الإسلامية، واختلف الرأى ما

---

(١) ملحق رقم (٢).

١- مجموعة الشعوب التركستانية وتمثل ٨٥٪ من المسلمين، وتضم معظم سكان كازاخستان - أوزبكستان - أذربيجان - قيرغيزيا - تركمنستان وهؤلاء السكان يتحدثون لغات قريبة من اللغة التركية وهم يمثلون الثقافة التركية.

٢ - المجموعة الثانية: وتعرف بالمجموعة الإيرانية، وتمثل (٨,٤٪ من المسلمين) ويتمركزون فى طاجكستان، وهؤلاء أقرب للثقافة والحضارة الإيرانية.

٣ - المجموعة الثالثة: وتعرف بالشعوب الإيبروقوقازية وهؤلاء يعيشون فى مجموعات متفرقة فى القوقاز وروسيا مثل (الأنجوش والشاشان).

ويشيع بين مسلمى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية الست شعور عام وقوى بإحياء هويتهم القومية والدينية، ويتمثل هذا الشعور فى عدة أهداف هى إحياء التاريخ الإسلامى لتركستان والذى كان يمثل منارة للعلم والثقافة قبل الاحتلال الروسى، وكذا التمسك بإحياء اللغات القومية الأصلية لتلك البلدان هذا بالإضافة للتمسك بالعادات والقيم والسلوك الإسلامى القويم.

وقد ظهرت منذ اللحظة الأولى للاستقلال وجود حركة مطردة نحو نمو الوعى الإسلامى، وتثبت قيمه النبيلة والتمسك بالثقافة الإسلامية كنمط للحياة متمثلة فى إقامة الشعائر الدينية وحرية الدعوة الإسلامية بعد حرمان دام لسنوات وسنوات.

وقد أثير العديدمن القضايا والتساؤلات فيما يتعلق ببحث أوضاع ومستقبل الدول المستقلة، ورابطة الكومنولث.

حيث إن الدول المستقلة تختلف من حيث القدرات الاقتصادية ومستويات التنمية والقدرات البشرية وخاصة النووية، والموارد الطبيعية، خاصة موارد الطاقة وكذا الإنتاج الزراعى، وتختلف كذلك من حيث عدد السكان، ومستوى التعليم والبحث العلمى، وانعكاس وتأثير كل ذلك على مستقبل تلك الدول وعلاقاتها بالعالم الخارجى.

وقد أثار هذا الموضوع وهذه القضايا العديد من الباحثين الذين وضعوا العديد من الاحتمالات لمصير ومستقبل رابطة الكومنولث، بناء على المعطيات السابقة، وكان الاحتمال الأول يرى أن دول هذه الرابطة سوف تعمل على تطور علاقاتها بدول الجوار الاقليمى وخاصة أوربا الشرقية والغربية (روسيا - أوكرانيا - بيلاروسيا - مولدافيا) وأن المجموعة الإسلامية من دول الرابطة سوف تتجه لتطوير علاقاتها مع دول غرب آسيا والشرق الأوسط خاصة تركيا وإيران.

٢- رئيس جمهورية كازاخستان: «نريد تطبيق نظام اقتصاد السوق الحر، والنموذج الوحيد الذى لدينا هو تركيا» ويضيف: «لا أعتقد أن الإسلام فرصة كبيرة. إن علمانية تركيا تمثل أيضا نموذجا بالنسبة لنا». وفى مقام آخر أعلن رغبته فى إقامة منظمة عالمية للبترول مع بقية الجمهوريات الإسلامية المستقلة، على غرار منظمة الاوبك ولكنها تكون منفصلة عن تلك المنظمة.

٣- رئيس جمهورية أذربيجان: «إننا أخوة فى الدم نتحدث نفس اللغة.. ولنا تقاليد واحدة.. إننا أتراك فى الاذربيجان»، ورئيس وزرائها: «نريد من تركيا أن تمثلنا فى العالم الخارجى».

٤- رئيس جمهورية أوزبكستان: يؤكد على ضرورة تأسيس رابطة كومنولث الدول الإسلامية فقط بحيث تنفصل عن جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق.

٥- رئيس قرغيزيا: «إننى ضد التعصب الدينى وهناك افتراض أن تصبح جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية دولا إسلامية وأتعهد بألا يحدث ذلك».

٦- زعيم حزب النهضة الإسلامية: فى طاجيكستان أعلن أن حكومته شيوعية وهو يرفض التعاون معها معلنا ان أعضاءها مجرد «دمى فى أيدى الروس»، وأوضح أنه لولا القوات الروسية لسقطت حكومة الماركسيين التى ذبحت الاف المسلمين.

ومن التصريحات السابقة يتضح لنا البصمات الشيوعية التى مازالت تترك آثارها على اتجاهات دول الكومنولث الإسلامى ومستقبله[١].

وأن الاتجاه العام هو السير نحو تقليد النموذج التركى العلمانى الذى ينظر إليه على أنه البديل الجديد المناسب لطبيعة التحولات الاقتصادية فى البلاد مع وجود تيارات إسلامية تحاول أن تثبت وجودها.

ولا يخفى على أحد أن تركيا لها ثقل ووزن نفسى وشعبى لدى معظم مسلمى وسط آسيا للخلفيات العرقية والقومية واللغوية والتاريخية والمذهبية، إضافة إلى أن تركيا تتبع النظام الغربى الذى تريده الولايات المتحدة الامريكية مما يفتح الباب أمام حكام تلك الجمهوريات لتطبيق نظام السوق الحر لدى أمريكا والدخول فى حظيرتها[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥

(٢) المرجع السابق، ص١١٦

بين متفائل جدا ومتشائم جدا، ومتحفظ إلى حد كبير فالفريق الأول المتفائل، توقع قيام كيان إسلامى يوحد تلك المنطقة ويعمل على احياء التراث الإسلامى القديم، والرجوع بالتاريخ إلى الماضى القريب مع تلاحم تلك البلدان بوضعها الاسلامى مع العالمين العربى الاسلامى، وقد افتقرت هذه النظرية بالطبع لمعطيات مهمة وكثيرة أهمها هو أن العالم الاسلامى الآن منقسم على نفسه ولا يصلح أن يكون نموذجا يحتذى به، إضافة الى عوامل خارجية تمثل رغبة جهات اجنبية كبرى فى سحب هذه البلدان الوليدة إلى النموذج التركى، الذى يلاقى ترحيبا من حكام تلك البلدان باعتباره نموذجا علمانيا غير أصولى، وبذلك تسقط نظرية الكيان الاسلامى الموحد من أول خطوة بعد الاستقلال.

أما الفريق الثانى والذى يرى أن الافكار الشيوعية الاشتراكية مازالت مسيطرة على فكر النخبة الحاكمة والتى هى فى صراع دائم مع النزاعات الأصولية الاسلامية فى بلادها ومن ثم فلا أمل فى أى تقارب أو تلاحم بين تلك الدول والمجتمع الاسلامى.

أما الفريق الثالث فهو ذلك الفريق الذى يجمع بين البعد الدينى لشعوب تلك الدول والبعد الايديولوجى للنخبة الحاكمة فيها والتى مازالت تؤمن بالفكر الشيوعى أسلوبا ومنهجا مع التطلع للديمقراطية الغربية التى ليس فيها مساحة للدين فى السلطة واعتبار النموذج التركى هو الأمثل والأفضل بالنسبة لها ولبلادها.

وهذا الرأى يميل إليه المؤلف حيث يرى أنه من الملاحظ أن الشعور الدينى لشعوب تلك المنطقة يزداد قوة وتمسكا بدينهم الحقيقى فى حين أن النخبة الحاكمة تميل إلى الفكر العلمانى بصورة واضحة، وثابت ذلك من أقوال بعض المسئولين فيالجمهوريات الإسلامية.

ومن تلك الآراء يمكن أن نتبين الاتجاهات العامة للنخب الحاكمة فى تلك الجمهوريات والتى توجه سياساتها الخارجية إزاء التعامل مع العالم الخارجى بما فيه العالم الاسلامى وملخص هذه الآراء ينحصر فى الآتى[1]:

١- وزير خارجية تركمنستان: لا يريد أن تكون بلاده شيوعية أو إسلامية بل يريد أن تقوم على «الديموقراطية العلمانية».

---

(١) علاء الدين المنوفى - مرجع سابق، ص١١٤

خلاصة القول:

من الثوابت التاريخية أن ثورة ١٩١٧ هى ثورة ذاتية، قامت دون تدخل طرف خارجى، والذى قام بمقتضاها الاتحاد السوفيتى، ومن الجدير بالذكر أن انهيار الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٩١ كان نتيجة ثورة ذاتية أيضًا، والتى تم بمقتضاها إعلان انهيار الاتحاد السوفيتى واستقلال دول الكومنولث، ومن خلال هذين التاريخين ظهرت أيديولوجيات دينية وعرقية وقومية، كانت مختفية أمام طاغوت الأيديولوجية الاشتراكية الشمولية، وكان من نتيجة صدام هذه الأيديولوجيات بالإضافة للأسباب الاقتصادية، والضغوط الخارجية، أن انهار الاتحاد السوفيتى، إلا أن انهيار الاتحاد السوفيتى، واستقلال دول الكومنولث الإسلامى ليس كافيا لنزع التأثير الأيديولوجى الشيوعى من تلك المنطقة، وإن كانت المؤشرات تؤكد أن الشعوب الإسلامية فى تلك المنطقة ظلت محافظة على دينها وهويتها الإسلامية، إلا أن الفكر الحاكم فى تلك البلدان مازال يتأثر بالشيوعية وايديولوجيتها فكرا ومنهجا، ولذا يجب العمل على مساعدة شعوب تلك البلدان حتى يستعيدوا بكل هدوء هويتهم الدينية والحضارية.

وبالنظر للدوافع النفسية للدول الأوربية والأمريكية والتى تعتبر العالم الإسلامى عدواً للغرب، فكان من الضرورى لها التحرك نحو تلك الجمهوريات الوليدة لاحتضانها ولإحباط أى محاولة لتحقيق النهضة الاسلامية سواء من الداخل أو بمساعدة من الخارج، فعززت وجودها التجارى فى تلك المنطقة بطريق مباشر أو غير مباشر عن طريق دفع إسرائيل أو تركيا لإقامة علاقات مباشرة قوية مع تلك الدول فالجميع يسير فى اتجاه واحد وضد الإسلام.

وقد أصبح هذا الاتجاه هو الاقوى فى المنطقة واصبح للغرب وتركيا الثقل التجارى والنفسى فى تلك الجمهوريات.

ولكن هذا لا يعنى فقد الدور الايرانى والذى يمثل الاتجاه الاصولى فإن الدور الايرانى مازال متواجدا ومؤثرا إلى حد ما، نتيجة قيامه بالتحرك الدينى والثقافى المتطبع بالفارسية إضافة للقيام بعمل مشروعات دينية وثقافية وتجارية واقتصادية فى تلك المنطقة.

وباستثناء الدور المصرى والدور السعودى فى هذا لمجال فبكل أسف شديد لا توجد أى محاولات من الدول العربية أو الاسلامية نحو تلك البلدان(١).

فنجد أن لمصر دور ومكانة مهمة فى نفوس الشعوب الإسلامية حيث تتمتع بوجود أقدم جامع وجامعة للمسلمين وهو الجامع الأزهر الشريف الذى يحظى باهتمام جم واحترام وتوقير من كل مسلمى العالم، وبالاخص مسلمى آسيا الوسطى، لوجود روابط تاريخية قديمة، وقد قامت مصر ومازالت بفتح المراكز والمدارس التى تدرس اللغة العربية والدين،وقامت بإنشاء فرع لجامعة الأزهر فى كازاخستان، والمعروفة باسم جامعة مبارك نور، وساهمت فى إنشاء مركز البخارى فى أوزبكستان وفتح باب المنح أمام طلاب العلم للدراسة بالأزهر الشريف، وقامت بدعم المشروعات الإسلامية هناك، وتم تبادل الوفود الرسمية وغير الرسمية مع هذه الدول وعمل الاتفاقيات المختلفة فى شتى المجالات وكان الهدف الأساسى من هذا التحرك هو إحياء الصحوة الإسلامية الصحيحة فى المنطقة، وتدعيم العلاقات المختلفة مع تلك المنطقة الاسلامية التى تنتمى بتاريخها العريق إلى دول العالم الإسلامى.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٩

الفصل الثانى

أسباب اختيار أوزبكستان

يتناول هذا الفصل التعرض للأسباب التى دفعت المؤلف لاختيار أوزبكستان نموذجا للدراسة، كما يتناول أوزبكستان فى الحفاظ على الهوية الإسلامية.

وتنقسم الدراسة فى هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: يتناول الاسباب التاريخية والحضارية والموضوعية.

المبحث الثانى: يتناول دور أوزبكستان فى الحفاظ على الهوية الإسلامية.

وسنتناول الموضوع بشئ من التفصيل:

المبحث الأول

أسباب تاريخية وحضارية وموضوعية

أولا: الأسباب التاريخية:

إذا كان ابن خلدون قد أكد أن للبقاع تأثيرا على الطباع فهذا جلى فى أوزبكستان، فجمهورية أوزبكستان تقع بين النهرين الأسيويين الكبيرين جيحون (أمودريا) وسيحون (سيردريا)، وتتكون الجمهورية من اثنى عشر إقليما بالإضافة إلى جمهورية قارقالياقستان والتى تتمتع بالحكم الذاتى، وقد أعلنت أوزبكستان الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى فى أول سبتمبر ١٩٩١م، وتبلغ مساحة أوزبكستان ٤٤٧٧ الف كم٢، وهى تقع فى قلب آسيا الوسطى، ويحدها خمس دول مجاورة من الشمال الشرقى قرغيزستان، ومن الشمال الغربى قزخستان، ومن الجنوب الغربى تركمنستان، ومن الجنوب الشرقى طاجكستان، ومن الجنوب أفغانستان(١).

وهكذا تكون أوزبكستان تمثل القلب لدول وسط آسيا الإسلامية بل هى مركز الدائرة لتركستان الكبرى، مما أعطاها أهمية كبيرة دون غيرها، وطبيعة أوزبكستان متباينة للغاية إذ توجد كذلك أراض منبسطة وسهول خضراء، وتوجد أراض صحراوية وجبال عالية مكسوة بالثلوج، والخضرة وتوجد الأنهار، والمياه الوفيرة.

---

(١) المرجع السابق، ص٧

الباب الثالث
أوزبكستان نموذجًا

الفصل الثانى
أسباب اختيار أوزبكستان

المبحث الأول : أسباب تاريخية وحضارية وموضوعية.

المبحث الثانى : دور أوزبكستان فى الحفاظ على الهوية الإسلامية.

القومية» أى الشعور للانتماء إلى حدود أوسع تمتد جغرافيا أبعد بكثير من حدود دولة واحدة «مثل الشعور بالانتماء للإمبراطورية السوفيتية»(١).

وهذا يتطلب من أوزبكستان وغيرها من دول المنطقة أن تصل لمعادلة متوازنة بين مستويات الهوية الثلاث (الهوية القومية - دون القومية - عبر القومية) مما يضمن الحفاظ على الهوية القومية، ويرفع التناقض بينها، وبين الهويتين المشار إليهما (دون القومية - عبر القومية) وهو ما نجحت فيه أوزبكستان عندما نالت استقلالها وباشرت سيادتها على أرضها، وأعلنت عن هويتها القومية(٢).

وبالبحث فى صفحات التاريخ القديم القريب للمنطقة عامة، ولأوزبكستان خاصة نجد أن الاستقلال كان نتاج رحلة طويلة من البحث عن الشئ المفقود والمأمول ألا وهو الحرية التى تحققت باستقلال أوزبكستان فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٩١م، هو تاريخ مجيد إذ أنه ينهى العلاقة الاستعمارية للبلاد، والتى بدأت من ١٥ يونيو سنة ١٨٦٥، وهو التاريخ الذى اجتاحت فيه قوات روسيا القيصرية مدينة طشقند والتى استمرت مائة وستة وعشرين عاما عاشتها البلاد تحت حكم القياصرة، ثم الحكم الشيوعى السوفيتى على التوالى وكلاهما يمثل احتلالا أجنبيا بغيضا، ومن نافلة القول نؤكد أن التاريخ سجل لأوزبكستان أعظم بطولات المقاومة ضد المحتل الاجنبى فهناك تراث غنى وسجل حافل بأعمال المقاومة الأوزبكية ضد السيطرة الروسية سواء فى عهد القياصرة أو فى عهد الشيوعية السوفيتية، فالتمسك بالتقاليد القومية، والعادات الإسلامية، خلق مانعا طبيعيا وسدا قويا أمام الحملات والموجات العاتية للترويس الثقافى، إضافة للمقاومة الشعبية التى خاضها الشعب الأوزبكى ضد المحتل الروسى فى العشرينات من القرن العشرين، والتى كانت تسمى «بالباسماتشى» أو البصماجية وهى حركة مقاومة مسلحة كبدت القوات الروسية الخسائر العديدة، وكان لوجودها الأثر الفعال فى إشعال رغبة المقاومة فى بلدان أخرى كثيرة فى المنطقة(٣).

وإذا كانت أوزبكستان تملك قواعد جغرافية وسكانية واقتصادية مهمة بل وجعلتها فى مركز الصدارة فلا ينبغى لأى باحث أن يغض الطرف عن قاعدة مهمة من قواعد الثبوت الحضارى ألا، وهى القاعدة التاريخية.

---

(١) نفس المصدر ص٧

(٢) محمد السيد سليم - نعمة اله إبراهيموف - إبراهيم عرفات - صالح انعاموف (دكاترة) أوزبكستان الدولة والقائد - القاهرة - مطابع الشروق - سنة ٢٠٠٠، ص١٠

(٣) أحمد رائف - المرجع السابق، ص١١٤

ومناخ أوزبكستان قارى وجاف وحار بالصيف وبارد بالشتاء، ولكن تقلبات المناخ الدائمة قد تجعل الشتاء دافئًا أحيانا، والصيف معتدل أحيانا أخرى، وهذا التنوع فى المناخ أكسب السكان قوة تحمل وجلد فى التعامل مع الطبيعة، كما أتاح لهم زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل، الخضر، والفاكهة، وخاصة المحاصيل الاستراتيجية مثل القطن القمح، وعاصمة أوزبكستان هى طشقند (جاج - شاش) ويبلغ عدد السكان حسب إحصائية أول يناير سنة ٢٠٠٠م ٢٤,٦ مليون نسمة(١).

يمثل الأوزبك ٧٢٪ من عدد السكان وهم أوزبك مسلمون سنيون وحنفيو المذهب والبقية عرقيات أخرى من الروس، الطاجيك، القازاق، والتتار، والقيرغيز، والكوريين، والأرمن، والأوكرانيين، التركمان، ومجموعات أخرى.

وحيث إن أوزبكستان كانت تمثل بموقعها الوسط فى آسيا الوسطى حجر الزاوية، ومركز الدائرة لدولة تركستان الكبرى التى تعرضت لموجات متتالية من الغزو الخارجى خلال حقب تاريخية متعاقبة، فإنها الآن مثلها مثل غيرها من جمهوريات آسيا الوسطى، تبحث عن ذاتها، وعن هويتها القومية، خاصة أن أوزبكستان هى أكبر جمهوريات آسيا الوسطى سكانا وتملك من التراث الثقافى والتاريخى ما يؤهلها إلى لعب دور قيادى فى المنطقة.

كما أنها تملك رصيدا هائلا من الموارد الطبيعية، والخبرات البشرية يجعلها ذات اهمية كبيرة بين دول الجوار إضافة إلى موقعها الجغرافى المركزى بالنسبة لباقى دول المنطقة.

ومن هذا المنطلق فإن نجاح أوزبكستان فى مهمة البحث عن ذاتها، وهويتها القومية لا يعتبر مفيدا لها فقط بل يكون مفيدا لها ولكل منطقة آسيا الوسطى بأسرها فاستقرار أوزبكستان، ونموها يكون لصالح كل دول المنطقة.

فأوزبكستان نموذج لباقى دول المنطقة، قامت ببلورة هوية قومية أوزبكية تعكس التضحيات التى قدمها الشعب من أجل الأرض التى عاش عليها سنوات طويلة يكافح من أجل التخلص من الرواسب الاستعمارية، والغزوات المتتالية خلال حقب تاريخيةمتعاقبة، فأوزبكستان دولة متراكبة الهويات تتداخل فيها الهويات «دون القومية» أى «الولاء الضيق داخل حدود الدولة»مثل الانتماء إلى جماعات عرقية تنخرط فى نسيج المجتمع والقومية، وكذا تتداخل «الهويات عبر

(١) صالح أنعاموف - جمهورية أوزبكستان - طشقند وكالة جهان للإعلام سنة ٢٠٠١، ص٥

والفريق الثالث كان يطمع فى تحقيق مجد عسكرى إمبراطورى لتوثيق اسمه فى التاريخ باعتباره فاتحا لمنطقة آسيا الوسطى المغلقة طبيعيا، وجغرافيا، وذلك منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد حين زحف الفرس إلى المنطقة وتم ضمها للإمبراطورية الفارسية إلا أنه وفى القرن الرابع عشر استطاع الإسكندر الأكبر هزيمة الفرس، وطردهم من آسيا الوسطى ثم تعاقب الفاتحون على المنطقة مرورا بالمملكة السلوفية عام ٦٤ق م ثم النفوذ الصينى فى عام ٥٢ ق م، ثم الساسانية الفارسية، ثم العرب، ثم الاتراك الكاراخانيين ثم المغول، فالدولة التيمورية ثم قبائل الأوزبك والمنتسبة إلى خان أوزبك (١٢٨١-١٣٤٢م) [١]، قد تمكن الأوزبك تحت قيادة شيبانى خان فى نهاية القرن الخامس عشر من تأسيس عدة مدن مهمة مثل بخارى - خوقند - خيوه، وكانت هذه المدن تمثل أبرز نقاط الجذب السياسى الثقافى الحضارى، والاقتصادى لمنطقة وسط آسيا، خاصة بعد أن اعتنقت الإسلام وقبلته ديانة وأسلوب حياة فى كامل عاداتها وتقاليدها.

وفى هذا السياق نجد أن هذه القبائل الأوزبكية كانت بمثابة نواة للأمة الأوزبكية التى وحدها انتماؤها العرقى المشترك، ودخولها فى الإسلام، والقيام بنشره، وحرصها على حماية طريق الحرير الذى يمر بأهم مدن ومراكز آسيا الوسطى التى تشغلها هذه القبائل الأوزبكية.

ويؤكد التاريخ أن الدولة التيمورية التى أسسها تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥م) فى بلاد ما وراء النهر قد لعبت دورا مهما فى نشر الإسلام، والثقافة الإسلامية، ومن الجدير بالذكر أن هذه الدولة هى التى قامت مكانها دولة أوزبكستان، وبعد تفكك وانهيار الدولة التيمورية نشأت ثلاث إمارات مستقلة مكانها هى خانات (خيوه - بخارى - خوقند).

وهذا الثقل السياسى والعسكرى الذى تمثله الأمة الأوزبكية فى الخانات والمدن المهمة مثل طشقند - بخارى - خوقند - خيوه جعل القوى الأجنبية المعادية تنظر أول ما تنظر إلى تلك المدن لأن إخضاعها ولأن احتلالها يعد احتلالا وسيطرة كاملة على منطقة آسيا الوسطى التى عرفت باسم تركستان[٢].

وعلى ذلك نجد أن القوات الروسية القيصرية بدأت باحتلال طشقند سنة ١٨٦٥ ثم سيطر الروس على بخارى سنة ١٨٦٨ ثم خيفا سنة ١٨٧٣ ثم خوقند سنة ١٨٧٦ ثم تتابعت السيطرة الروسية على باقى مدن المنطقة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢

(٢) إسلام كريموف - اوزبكستان على طريق الانبعاث الروحى - مرجع سابق، ص١٩٩

فقد مرت على أوزبكستان حقب تاريخية مختلفة تركت على أرضها تراثا إنسانيا غنيا، يجمع بين جنباته خبرات، وفلسفات متباينة إذ تعد أرض أوزبكستان بمثابة الترجمان لتاريخ المنطقة إذ كانت مدن أوزبكستان الشهيرة مثل بخارى، وخيفا، خوقند تمثل الثقل السياسى الاقتصادى والثقافى لمنطقة وسط آسيا، بل وتدار منها شئون باقى بلدان وسط آسيا حتى كانت القبائل الأوزبكية فى القرن السادس عشر هى المنوطة بحماية الطريق التجارى القديم فى وسط آسيا، والمعروف بطريق الحرير والذى كان وصل إلى حدود الصين، وتعتبر أرض أوزبكستان هى منطقة التقاء عدة حضارات منها الصينية والفارسية ثم الإسلامية كل هذه العوامل جعلت أوزبكستان ذات هوية قومية ثابته لا يغيرها التاريخ بل لا تؤثر فيها الحضارات المختلفة إلا بالقدر الذى تحتاجه هى ويصبح جزءا من هويتها، وبذلك فهى تَستَوعِب ولا تُستَوعَبَ بأى شكل، وتعطى الوافد إليها بالقدر الذى يتناسب مع تقاليدها، وثقافتها، وفى ذات الوقت لا تنصهر أو تتشكل بثقافة أو عادات الوافد.

ويأتى التاريخ الأوزبكى، والذى يضرب بجذوره فى الماضى البعيد ليؤكد أن الشعور بالانتماء لدى الأوزبك هو شعور قوى قديم منذ أن كانت هناك قبائل أوزبكية وأمة أوزبكية يجمع بين أفرادها التاريخ المشترك، واللغة الواحدة، والديانة الواحدة، والتحديات الخارجية الواحدة، وبذلك تكونت الأمة الأوزبكية الموحدة ثم تكونت الدولة الأوزبكية، بعد ذلك، وهذا من أعظم نماذج بناء الدول لأن بناء الأمم قبل بناء الدولة دليل على قوة وعمق التجربة التاريخية، لقد ارتبط التاريخ الأوزبكى بمجمل أحداث وتاريخ المنطقة فى آسيا الوسطى، حيث كانت هذه المنطقة هى محط أنظار وعيون القوى الأجنبية الطامعة، والتى كانت ترفع الشعار الاستعمارى القديم، والمعروف فى تاريخ الإنسانية مجازاً بثلاثية: الله - الذهب - المجد(١).

ونظراً لتوافر الموارد الطبيعية فى تلك المنطقة، ووجود ثراء كبير بين حكامها وتوافر الخيرات حتى إنها كانت تعرف بأنها جنة الله على الأرض كل هذا دفع كثيراً من القوى الأجنبية الخارجية إلى الزحف نحو آسيا الوسطى فالبعض جاء رافعا راية الدين محاولا فرض ديانته على المنطقة، والبعض الآخر حرص على البحث عن ثروات المنطقة ومواردها الطبيعية، واستنزافها لصالحه.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠

والذى بدأ بعد تعيينه سنة ٧٠٥م ترسيخ الفتح الإسلامى لبلاد آسيا الوسطى، ولذا يعتبر هذا التاريخ هو بدايةالفتح الحقيقى للإسلام فى تركستان، وقد استطاع قتيبة أن يدخل بخارى سنة ٧٠٩م ثم خوارزم وسمرقند سنة ٧١٢م ثم استطاع المسلمون بعد ذلك السيطرة الكاملة على بلاد آسيا الوسطى، ونشر الإسلام فيها، والذى لقى قبولا وتشجيعا عظيما من أهل البلاد نظراً لسماحة الإسلام ومعاملته بالحسنى وإعفاء معتنقى الإسلام من الجزية مما دفع معظم أهل البلاد إلى دخول الإسلام طواعية، وتم تعلم اللغة العربية، وفتح المدارس الإسلامية، ومن خلال تعلم اللغة العربية استطاعت شعوب آسيا الوسطى من الاطلاع على مؤلفات العلماء اليونانيين، والصينيين، وعلماء العرب والمسلمين[١].

وقد أسهمت شعوب المنطقة وبخاصة الشعب الأوزبكى فى إثراء الحضارة الإسلامية، فقد ظهرت فى هذه البلاد نخبة من العلماء الأفذاذ مثل أبى النصر الفارابى المتوفى سنة ٩٥٠م فى الفلسفة والعالم أحمد الفرغانى المتوفى سنة ٨٥٠م فى الفلك (وهو مصمم قياس النيل بالروضة بمصر) والعالم أبى على بن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧م، وعالم الجغرافيا والمؤرخ أبى ريحان البيرونى المتوفى سنة ١١٤٤م، وبرهان الدين المرغنانى وغيرهم الكثير والكثير، وكان إسهام الأوزبك فى تلك المسيرة الحضارية إسهاما فعالا أثر ومازال مؤثرا فى الثقافة الإسلامية فهذا هو أبو عبد الله البخارى (٨٠٩-٨٦٩م) والذى ترك أكثر من عشرين مؤلفا فى الحديث والتاريخ وأصبح من أهم كتب الحديث فى العالم الإسلامى المعروف باسم «صحيح البخارى» وكذلك السمرقندى والهمذانى وهما من أئمة الحديث الذين أثروا الثقافة العربية الإسلامية.

وكان لعملية التفاعل بين أهل البلاد فى آسيا الوسطى والعرب الذين استوطنوا هذه البلاد أثره الفعال فى الاندماج والمصاهرة والمعايشة التامة حتى إن هؤلاء العرب أقاموا بصفة دائمة بقرية «جنوه فى أوزبكستان» ومازال أحفادهم حتى الآن يعرفون أصولهم العربية رغم اندماجهم فى نسيج المجتمع الأوزبكى، وهم الذين سكنوا أوزبكستان أثناء الفتوحات الإسلامية على يد قتيبة بن مسلم الباهلى، ومازالت هناك هذه الجالية العربية التى مازالت محافظة على ثقافتها ولغتها، وتقاليدها الأصلية، وحتى عام ١٩٣٥م كانت توجد عدة مساجد وزوايا إسلامية لها أهمية كبيرة فى العالم الإسلامى إذ أن تاريخ إنشائها يرجع إلى عهد قتيبة بن

(١) المصدر السابق، ص٨

ونلاحظ أن الأسباب التى دفعت القوات الروسية القيصرية للسيطرة أولا على تلك المدن الأوزبكية هى الأتى:

١- الأوزبك يمثلون عقبة أمام المحتل نظرا لأنهم الأكبر عددا بين شعوب آسيا الوسطى ولذا كان لزاما على القوات القيصرية الزحف أولا على أراضى الأوزبك للسيطرة عليها وقطع الطريق أما محركات المقاومة الأوزبكية باعتبارها مفتاح آسيا الوسطى.

٢- يمثل موقع أوزبكستان مركز العقد بين دول آسيا الوسطى مما جعلها من الناحية الاستراتيجية ذات وضع مهم يمكن من خلال موقعها المتوسط للمنطقة الانطلاق والتوسع إلى باقى بلدان تركستان، وكذلك هذه هى سياسة الفكر التوسعى القيصرى.

٣- كانت الإمكانيات المادية والطبيعية لأوزبكستان مثل جودة الأراضى ووفرة المياه ووجود محاصيل مهمة مثل: القطن، والقمح، وغيرهما إضافة لوجود العديد من الموارد الطبيعية، والمواد الخام من بترول ومعادن وغيرها سببا مباشرا للسيطرة عليها فى العهدين القيصرى والروسى(١).

فكل هذه الأسباب التاريخية والواقعية هى التى جعلت أوزبكستان محور الدراسة باعتبارها النموذج الأصلح بين دول وسط آسيا الإسلامية، إضافة للأسباب الحضارية والموضوعية التى تؤكد لأوزبكستان دورها الريادى فى المنطقة، قديما وحديثا باعتبارها دولة محورية ذات مقومات مهمة تؤهلها للاضطلاع بهذا الدور.

ثانيًا: الأسباب الحضارية(٢):

يبدأ التاريخ الفعلى لقيام وانتشار الحضارة فى منطقة وسط آسيا حينما ضمت آسيا الوسطى (تركستان) إلى الخلافة العربية الإسلامية سنة ٦٣٣م، وبعد هذا التاريخ بأربع سنوات سيطرت الجيوش الإسلامية على الإمبراطورية الفارسية (الساسانية)، ومنها انطلقت الفتوحات على مراحل متقطعة إلى بلاد ما وراء النهر وهى المنطقة الواقعة بين نهرى جيحون (أمودريا) وسيحون (سيردريا) ويذكر التاريخ أن الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر كان سنة ٦٧٤ م على يد القائد المسلم عبيد الله بن زياد ثم عين القائد قتيبة بن مسلم الباهلى واليا على خراسان

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤

(٢) نصرالله الطرازى - تعاليم الأوزبكية - مرجع سابق، ص٦

شهدت بلاد ما وراء النهر مما بين القرنين التاسع، والثانى عشر تطورا حضاريا فى جميع المجالات ففى ذلك العهد تأصل الإسلام وانتشر فى تلك المنطقة وأثر تأثيرا إيجابيا فى تطور بلاد ما وراء النهر، والتى تشكلت فى ظل حكم السامانيين والقاراخانيين والغزناويين والسلاجقة والخوارزمشاهيين، وظهرت آثار هذا التطور فى مجالات الأدب، والفن، والصناعة، والتجارة بفضل الحركة فى طريق الحرير الكبير مما أدى إلى بناء المدن الشامخة، والمنشآت العملية والثقافية والمدارس والجوامع، والمقابر، والأضرحة، وغيرها من الآثار التى كانت ومازالت متفردة بذاتها حتى إن هذه الفترة عرفت باسم عصر النهضة (رينيسانس) وعهد الانبعاث الحضارى وقد استفادت من منجزات حضارة هذا العهد حضارة بلدان أوروبا الغربية إلا أن هذه النهضة الحضارية قد انقطعت فجأة عام ١٢٢٠م بسبب اجتياح المغول لبلاد ما وراء النهر، وخراسان، وتخريبها لمدنها، وقراها.

إلا أن حركة الانبعاث الحضارى لبلدان ما وراء النهر عادت واستمرت بعد هزيمة المغول وتأسيس دول مستقلة موحدة تحت قيادة الأمير تيمور حتى سميت تلك الفترة وهى ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعهد النهضة الثانية فى آسيا الوسطى، وهى مرحلة مهمة فى تاريخ تطور الحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى إذ شهدت العلوم الإسلامية والعلوم الطبيعية والفنون والآداب وفنون العمارة تقدما كبيرا وإنجازات اشتهرت فى الشرق الإسلامى ودول أوربا وعلى ضوء هذا التقدم الحضارى فقد زاد الاهتمام باللغة التى هى وسيلة للإعلان عن هذا التقدم(١).

وزادت أهمية اللغة الأوزبكية والتى هى إحدى اللغات التركية، بعد أن أُلِّفت بها مؤلفات أدبية وعلمية وكانت حروفها تكتب بالحروف العربية وزادت الإنجازات العلمية والأدبية حتى ذاع صيت بلاد ما وراء النهر كأقليم أكثر تطورا فى العالم إذا احتلت الفنون والعلوم والآداب مكانة خاصة فى عصر الترقى والإزدهار فى هذه الفترة وبلغت علوم الحديث والفقه والفلك والرياضيات والطب والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة والموسيقا والشعر مستويات عالية ومتميزة وذلك بفضل العديد من العلماء الأفذاذ أمثال:

الفقهاء: عبد الملك - عصام الدين - الشيخ شمس الدين محمد بن الجزائرى - والفلاسفة سعد الدين التفتزانى - مير سيد شريف الجرجانى - يوسف القارابالى.

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٠

مسلم إلا أن السلطات السوفيتية دمرت كل هذا، ولم يبق منها إلا مسجد واحد هو مسجد تشار غومباز.

ومن هذا المنطلق يكون لأوزبكستان دور مؤثر وسبب قوى للاضطلاع بدور ثقافي وحضارى فى العالم الإسلامى، وذلك من خلال التراث الحضارى لأوزبكستان وهو التراث الذى أثر تأثيرا جوهريا فى الثقافة العربية الإسلامية مثل أعمال الإمام البخارى وغيرها بالإضافة إلى وجود العديد من الآثار الإسلامية المهمة بهذا البلد.

لمحة عن الآثار الإسلامية فى أوزبكستان:

لا شك فى أن آسيا الوسطى بصفة عامة وأوزبكستان بصفة خاصة تعتبر مركزا من مراكز الحضارة القديمة حيث كانت لشعوب آسيا الوسطى اليد الطوالى فى فنون العمارة والخزف، ومنذ دخول الإسلام إلى المنطقة اندمجت التقاليد والأعراف المحلية بالحضارة الإسلامية وأفرزت نهضة شاملة، وشهدت الفنون والصناعة والتجارة والأدب تطورا عظيما، واتسم القرنان التاسع والعاشر بتطور العمارة والفنون والخزف، ويكفى القول إن ضريح إسماعيل السامانى المشيد فى القرن التاسع فى بخارى يعتبر أقدم الآثار المعمارية وأعظمها بلاشك.

وفى أواخر القرن العاشر حلت سلالة القارخانيين محل سلالة السامانيين فى الحكم وتطورت الفنون والعمارة.

ومن تلك الآثار المهمة جامع «نماركاه» المشيد فى القرن الثانى عشر، وكذلك جامع ومسجد كلان والذى نشأ فى القرن الثانى عشر وأعيد تعميره فى القرن الرابع عشر وبه مئذنة كلان والتى ترتفع إلى ٥٠ مترا[١].

وكذلك انفرد برج «جاروقور غان» المقام سنة ١١٠٨م فى ضاحية مدينة ترمذ، وهذا البرج يشكل تحفة معمارية عالية، وكذلك مجمع "عورى أمير" للمقابر والذى يعد من أروع الآثار الإسلامية المشيدة فى عهد الأمير تيمور وغيرها الكثير من مقابر الحكام وأضرحة الصالحين، وكذلك مجمع «شاهى زينده» والذى يضم قبر قثم بن عباس رضى الله عنهما وهو ابن عم النبى ﷺ.

وهناك الكثير من المدارس ذات الطابع المعمارى الفريد مثل مدرسة أولوغ بيك فى بخارى سنة ١٤١٧م، ومدرسته فى سمرقند سنة ١٤٢٠م وغيرها الكثير والكثير[٢].

---

(١) إسلام كريموف - الآثار الإسلامية فى أوزبكستان - طشقند سنة ٢٠٠٢، ص١١٢

(٢) المرجع السابق، ص١١٣

من نير الاحتلال الروسى وقدمت الإمكانيات الكافية لدراسة تاريخ الحضارة القومية الأوزبكية وإحياء تراثها الحضارى الإسلامى من خلال ترميم آثارها فى سمرقند وبخارى واندیجان وخيوة وترمذ وفرغانة وغيرها، وتم إنشاء جامعة طشقند الإسلامية ومعهد البخارى للدراسات الإسلامية، وإنشاء العديد من المساجد والمدارس والجامعات وإحياء ذكرى العديد من العلماء أمثال البخارى، والترمذى، والفرغانى، والنقشبندى، والدارمى والمرغنانى، والماتريدى، وغيرهم الكثير.

وبذلك أثبتت الدراسة أن أوزبكستان تستحق أن تكون هى النموذج لدراسة بلدان وسط آسيا بصفتها صاحبة الرصيد الحضارى، والثقافى الكبير الذى أثر فى كل ما حوله.

ثالثا: الأسباب الموضوعية:

يعد من الأسباب الموضوعية لاختيار أوزبكستان نموذجا للدراسة أنها تمثل الثقل الثقافى والحضارى لدول المنطقة، إضافة إلى أنها أكثر جمهوريات آسيا الوسطى كثافة سكانية إذ يشكل عدد السكان ٦٠٪ من السكان فى المنطقة، إضافة إلى أن أوزبكستان تعد بلاد الحضارة العريقة إذ يوجد فى أراضيها آلاف الآثار، وكما يحفظ فيها فى خزائن الكتب والمكتبات والمراكز العلمية والمتاحف العديد من المخطوطات والتحف التى تدل على أصالة وعراقة هذا الشعب وامتداد جذوره إلى عمق التاريخ.

هذا وقد شهدت السنوات التى أعقبت الاستقلال نهضة فكرية وثقافية وتنموية فى أوزبكستان تقوم على أساس موضوعى يبدأ من الناحية الثقافية والدينية بإحياء الأعياد الدينية والطقوس الشعبية وتأمين حرية التدين والتعبد وتصحيح وعى النزعة القومية كما تم إحياء ذكرى الجديرين من العلماء البارزين.

وقد اختارت أوزبكستان من الاستقلال طريقا جادا ومهما يتلخص جوهره فى بناء مجتمع مدنى حر مؤسس على علاقات السوق، وتوفير ظروف مناسبة لحياة الشعب، ويجب القول إن الهدف الرئيسى لاختيار هذا الطريق هو الانتقال إلى التطور الطبيعى والحضارى بصورة تدريجية دون قفزات قد تؤدى إلى صدمات اجتماعية أو نتائج مؤسفة(١).

---

(١) صالح إنعاموف - باختيار ايريسوف - مرجع سابق، ص٨

ومن علماء اللغة: محمد عالم - الخواجة فضل الله أبو الليث.

من علماء الرياضيات والفلك: قاضى زاده الرومى - غياث الدين جمشيد - على قوشتش.

ومن الحكماء والأطباء: برهان الدين نفيس الكرمانى والرسام عبد الحى البغدادى.

ومن المؤرخين: نظام الدين الشامى - دولت شاه السمرقندى - مير خاند.

وغيرهم الكثير من العلماء الذين ساهموا إسهاما فعالا فى تطوير العلوم، والفنون فى ذلك العهد الذى يعتبر وبحق قمة النهضة والانبعاث الحضارى الذى بدأ فى آسيا الوسطى فى القرن العاشر والمرحلة المكملة له.

وبتتبع صفحات التاريخ لتلك المنطقة نجد أن الفترة من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر والمعروف باسم «عهد خانات الأوزبك»، وهى فترة اتسمت بالصراعات والحروب والنزاعات الداخلية الطويلة الشديدة من أجل السلطة، وانتهى الأمر بتشكيل دولتين مستقلتين هما إمارة بخارى وخاقانية خوقند إلا أن الحروب والصراعات لم تنته بعد هذه الفترة بفقدان المنجزات وشهدت تدهورا فى الحياة الاقتصادية والثقافية(١).

إلا أن هذا التفكك وإعادة رسم الحدود الجغرافية قد حدد ملامح الشخصية الأوزبكية من خلال إمارتى بخارى وخيوة، إذ نشأ أدباء وشخصيات بارزة فى الآداب والتاريخ وبعض الفنون وزادت مكانة اللغة الأوزبكية، وأصبحت تستخدم فى الأدب أكثر فأكثر إلى جانب اللغة الفارسية، وظهرت انبعاثة حضارية جديدة فى الخانيات الثلاث: بخارى - خوقند - خيوه، واشتهرت المدن وفنون العمارة وأنشئت مساجد وجامعة ومدارس وخانات وحمامات ومستشفيات ومن أمثال ذلك: مدارس مير عرب - عبد الله خان الثانى - عبد العزيز خان فى بخارى ومدرسة كوكالداس وضريح قفال الشاشى فى طشقند، ومجمع الله قولى خان فى خيوة ومدارس قوشمدرسة ونار بوته لى - مدلى خان - قصر بادرخان - وقصر حدايار خان فى خوقند إلى جانب الكثير من الآثار الأخرى(٢).

ثم جاء القرن العشرون والحادى والعشرون حيث نالت أوزبكستان استقلالها

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢

(٢) المرجع السابق، ص١٨٠

مثل صناعة المنسوجات وغيرها مما يرجع عائداته على المواطن الأوزبكى ويساهم فى تقديم الخدمات الأساسية للمواطنين من طرق ومواصلات، وخدمات صحية، وتعليمية وغيرها، وكذا توفير كافة السلع المعيشية للمواطن الاوزبكى، وهناك دلائل على تقدم النمو الاقتصادى وتحسين جميع مؤشرات الاقتصاد الوطنى من خلال المشروعات التى تقوم بها الدولة أو عن طريق جذب المزيد من الاستثمارات الأجنبية التى تساهم فى خدمة الاقتصاد الوطنى[1] وبالتالى ترفع من المستوى المعيشى للمواطن.

ولكن ورغم كل هذه النجاحات التى حققتها أوزبكستان بعد الاستقلال من إرساء قواعد الدولة الديمقراطية التى يحكمها القانون والدستور[2]، وأيضا السير بخطى ثابتة وواثقة نحو اقتصاد السوق وحرية التجارة والقيام بإحياء التراث الثقافى والحضارى للبلاد إلا أن أوزبكستان قد أعلنت على لسان رئيسها أنها دولة علمانية ستعمل جاهدة على القضاء على الأصولية الإسلامية، وهذا يعنى أن أوزبكستان اعتبرت النموذج العلمانى التركى هو النموذج الأنسب لتقليده، وتطبيقه فى البلاد، وهذا له مبرره من كون النخبة الحاكمة هى نتاج تربية اشتراكية شيوعية.

---

(١) ايركين خليلوف. الجهاز التشريعى الأعلى لجمهورية أوزبكستان طشقند وكالة جهان للإعلام سنة ٢٠٠١، ص٥

(٢) إسلام كريموف - أوزبكستان على طريق الانبعاث الروحى - مصدر سابق، ص٤١

وقد كان لزاما على أوزبكستان لكى تحقق أركان الاستقلال الحقيقى للبلاد أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة بتطور البلاد سواء كان ذلك من خلال نمط الحياة القومى للسكان أم طريقة التفكير، والعادات الشعبية، والتقاليد الاجتماعية، وكذا الدور المهم للعامل الدينى إذ أن العامل الدين الإسلامى يتجلى فى نمط الحياة وسيكولوجيات الناس وتكوين القيم الروحية والأخلاقية، وهذه السياسة تخدم الوضع الداخلى، والسياسة الخارجية، والتى تسعى للتقارب مع الشعوب الإسلامية الأخرى إضافة إلى أن أوزبكستان لها وضع جيوستراتيجى بارز فى المنطقة، حيث كان طريق الحرير قديما يمر بأرض أوزبكستان فكانت على امتداد عدة قرون ملتقى للقوافل التجارية التى مكنتها من تبادل الثقافات المختلفة مع الغير وأوزبكستان اليوم تقوم بحل كثير من المسائل بين دول الجوار بصفتها دولة تقع فى قلب آسيا الوسطى(١).

وقد وضعت أوزبكستان سياستها الداخلية على مسار اهتمام محدد ففى الداخل بدأت عملية التجديد والتقدم الاجتماعى فى مختلف المجالات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية والدينية، والثقافية، وغيرها، وذلك من خلال الإيمان بأن جمهورية أوزبكستان دولة ديمقراطية حرة لها السيادة على أراضيها، وتؤمن بالدستور وسيادة القانون، وأنها تأسست على المبادئ الإنسانية، وتؤمن بالمساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين بغض النظر عن انتمائهم القومى أو انتسابهم الدينى أو وضعهم الاجتماعى أو عقائدهم السياسية فأصبحت وبحق دولة تسير على الطريق الصحيح.

وبالنسبة للسياسة الخارجية(٢) فقد أقامت أوزبكستان علاقات قوية مع جميع الدول الكبرى فى العالم وفى الثانى من مارس سنة ١٩٩٢ انضمت أوزبكستان لهيئة الأمم المتحدة، كما انضمت للعديد من الهيئات والمنظمات الاقتصادية والمالية الدولية الكبرى وأصبح لها علاقات مع أكثر من ١٣٠ دولة فى العالم وذلك انطلاقا من مصالحها القومية.

ونظرا إلى أن أوزبكستان دولة غنية بالثروات والموارد الطبيعية وبكميات كبيرة فقد نشطت مشاريع تكرير البترول، والصناعات الثقيلة مثل صناعة الجرارات، والطائرات والسيارات، والمعدات الثقيلة، بالإضافة للصناعات الأخرى

---

(١) محمد السيد سليم - أوزبكستان الدولة والقائد - مصدر سابق، ص٩٥

(٢) صالح إنعاموف - المرجع السابق، ص٢٠

فاتخذت أشكال المقاومة المسلحة أحيانا وإصدار الصحف وتكوين الجمعيات السرية المقاومة للترويس فى المنطقة أحيانا أخرى[1].

وهذه المقاومة المسلحة قد عجزت عن تنفيذ ما تصبو إليه، بالرغم من البسالة والتضحية التى قدمتها بالروح وبكل غالٍ ونفيس، إلا أن التوسعات الروسية سارت إلى غايتها، وبالرغم من ذلك فإن هذه المقاومة بلاشك قد لعبت دورا رئيسيا فى بث الشعور القومى لدى الأوزبك، وفى الحفاظ على التقاليد الإسلامية والأوزبكية حية فى وجدان الشعب على الرغم من ضغوط آلة الحرب القيصرية، وبعدها آلة الدعاية للأفكار الاشتراكية الجديدة والتى بدأت تتسلل إلى المنطقة بعد ثورة روسيا الأولى سنة ١٩٠٥م ولعل حركة المقاومة التى انطلقت من إنديجان سنة ١٨٩٨م بقيادة محمد على المعروف باسم «دوخش ايشان» ضد القوات القيصرية تعد واحدة من أهم أمثلة المقاومة الأوزبكية لتيار الترويس الذى اجتاح بلدان آسيا الوسطى، وكانت هذه الحركة والتى أثارت وعى وحماس السكان فى كثير من المدن الأوزبكية بمثابة النبراس الذى حفز السكان إلى الزحف للحاق بمسيرة المقاومة ضد الوجود الروسى بالمنطقة[2].

المقاومة الأوزبكية لتيار الترويس الثقافى والفكرى:

لقد ظهرت بوادر حركة التجديد، والتحديث فى التعليم، وهى حركة تحديث المناهج الدراسية والحث على اللحاق بركب الحداثة، وقد بدأت هذه الحركة التركستانية فى أوزبكستان وبالتحديد فى طشقند بفكر جماعة من المستنيرين بزعامة منورى قازئ ومصطفى جوقاى والسيد نصر الدين خان الكمالى الكاسانى فتعددت الصحف التى بثت من خلالها المفاهيم التحديثية عن الإسلام، والتى جمعت بين الحث على مكافحة الجمود الدينى وعلى الحث على اللحاق بركب الحضارة، وقد تبنت هذه الأفكار والمفاهيم عدة صحف أوزبكية منها: صحيفة خورشيد وصحيفة: شهرت وصحيفة تجديد.

يضاف إلى ذلك نشاط الجمعيات السرية التى عمل بعضها متخفيا تحت ستار التعليم مثل جمعية تعليم الصبية والتى تأسست سنة ١٩١١م، وجمعية البركة التى تخفت فى ستار شركة تجارية، وكان هدف هذه الجمعيات هو المقاومة

---

(١) السيد محمد سليم - أوزبكستان الدولة والقائد - المرجع السابق، ص٢٣

(٢) المرجع السابق، ص٢٤

المبحث الثانى

دور أوزبكستان فى الحفاظ على الهوية الإسلامية

تحتل أوزبكستان موقعا خاصا فى وجدان وتاريخ الإسلام، ففيها ظهر الكثير من أئمة الإسلام وعلمائه فى مختلف المجالات ويعد تمسك أهلها بالإسلام والعبادات والعادات والتقاليد الإسلامية رغم القهر والقسوة فى العهدين القيصرى والشيوعى دليلا على أنها تستحق أن تنال شرف حمل لواء الإسلاميين فى بلدان وسط آسيا الإسلامية فتاريخها يثبت أنها أحق من غيرها بحمل هذه الأمانة ويشهد لها بلدان العالم بذلك، وفى أوزبكستان توجد أهم الإدارات الدينية والروحية، وكذلك المدرستان الدينيتان النشيطتان وهما "مدرسة مير عرب فى بخارى" ومدرسة الإمام «إسماعيل البخارى» فى طشقند.

وقد لعبت هذه المدارس الدينية دورا مهما فى نشر الإسلام، والحفاظ عليه، وعلى عاداته وتقاليده، وحملت مسيرة التنوير الدينى، والقومى ضد الاحتلال الروسى، كما لعبت الصحافة دورا ملموسا فى خلق الوعى القومى وإثارة حماسة الجماهير ضد الاحتلال الروسى ومقاومة عملية التذويب الثقافى فى إطار الثقافات السلافية الوافدة، فصدرت عدة صحف تحمل راية الحفاظ على الهوية القومية والإسلامية منها: صحيفة عينه وصحيفة سمرقند واللتان تم طبعهما فى سمرقند وأشرف عليهما عاشور على زهيرى، وكذلك صحيفة صدى تركستان وطبعت فى طشقند إضافة إلى مجلة دورية إسلامية هى مجلة المسلمون فى الشرق السوفيتى(١).

وكان مفتى طشقند يتولى منصب الرئيس الرسمى لجميع المسلمين السوفيت، كما كان يستقبل الوفود الإسلامية الأجنبية التى كانت تزور جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، وكان يتم استقبالهم فى طشقند أو سمرقند أو بخارى وكانت تعقد هناك المؤتمرات الإسلامية الدولية بصفة دائمة.

وكانت هذه المدارس والصحف والتى حملت لواء التنوير والتحديث لكل مناحى الحياة وخاصة التعليم الدينى قد حملت لواء تغذية الشعور القومى ضد الاحتلال الروسى وتعددت صور المقاومة الأوزبكية ضد التوسع القيصرى،

---

(١) شيرين عبد النعيم حسانين - مؤتمر الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى - مرجع سابق، ص٥٢

وعندما أرسلت لجنة تركستان والتى شاركت فى تشكيلها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البدلشفى والحكومة السوفيتية إلى مدينة طشقند، أشار لينين إلى الأهمية الكبرى بالنسبة لروسيا الاتحادية الاشتراكية فى إقامة العلاقات الصحيحة والرفاهية مع شعوب تركستان(١).

وفى هذه الاثناء طالب عدد من المستنيرين التركستانيين من اللجنة إعادة النظر فى موضوع فصل الدين عن الدولة، حيث أشاروا إلى ضرورة الحفاظ على الهوية القومية والإسلامية من خلال المدارس الدينية.

فصل الدين عن الدولة وحركة البصماجية:

لم يكن ممكنا تحقيق فصل الدين عن الدولة إلا من خلال عدة إجراءات تعسفية صارمة، مثل منع القضاء الشرعى وغلق المؤسسات الدينية ومصادرة أملاك وأموال الأوقاف والجمعيات الدينية وغلق المدارس الدينية ووقف أى نشاط دينى تحت أى مسمى، وقد تم ذلك بالفعل خلال الفترة من ١٩١٩م حتى ١٩٢٠م، وهذا هو الذى سبب سخط الجماهير الواسعة فى تركستان وعزز من حركة المقاومة الشعبية ضد السلطة الشيوعية، والتى عرفت باسم (البصماجية أو البسماتش) كما أطلقه عليها النظام الشيوعى.

وقد كانت مدينة فرغانة قد شهدت فى عام ١٩١٩ / ١٩٢٠م انتفاضة شعبية ثم تحولت إلى حركة بصماجية وهى حركة الثوار الذين قاوموا الاحتلال بالسلاح وبكل قوة وبسالة نظرا للأعمال غير الإنسانية التى كان يقوم بها ممثلو السلطات السوفيتية، والذى كان شعارهم من أول الامر ليسقط العالم القديم وهو فى مفهومهم يعنى المساجد والمدارس الدينية، والقضاء على علماء الدين وإلغاء القضاء الشرعى، ومكافحة ما يسمى بالخرافات الدينية التى تمثلت فى إحراق المصاحف وتحويل المساجد إلى إسطبلات الخيل أو ثكنات للجنود الروس، فكانت النتيجة أن رجال الدين ومرشدى الجماعات الدينية انضمت بطلائعها لفصائل البصماجية التى زادت من أعمال المقاومة ضد المحتل الروسى(٢).

وقد تشكلت فصائل من البصماجية فى كثير من المناطق التركستانية لمقاومة السيطرة السوفيتية والحفاظ على الهوية الإسلامية من محاولات تدميرها على يد

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام - العدد التجريبى الأول - المرجع السابق، ص١١٤

(٢) المرجع السابق، ص١١٧

الفكرية ضد الروس وتدخلاتهم وكانت هذه الجمعيات تدعم من الاغنياء الاوزبك، للحفاظ على الهوية والتصدى للوجود الروسى، سواء كان ماديا أم معنويا، وكل أشكال المقاومة هذه قد حملت لواءها اوزبكستان، والتى كانت تمثل القيادة والريادة لإقليم تركستان بأكمله، فكانت أوزبكستان وبحق هى التى حافظت على الهوية الإسلامية بكل ما قدمته من أشكال المقاومة سواء الفكرية منها أو العسكرية، واصبحت اوزبكستان هى مركز للمقاومة التركستانية، وبعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م، وللقضاء على الحكم القيصرى تشكلت حكومة مؤقتة من حزب المنشويك (المناشفة: الأقلية بقيادة كرينسكى زعيم الحزب، وانتخب السيد مبشر الطرازى ممثلاً لتركستان فى المجلس التأسيسى إلا أن إسقاط الحكم المؤقت لكرينسكى بانتصار حزب البلشويك)، (البلاشفة: الأغلبية) برئاسة لينين وستالين حال دون انعقاد هذا المجلس التأسيسى الذى كان سينظر فى استقلال البلاد، إذ بدأ البلاشفة بغزو تركستان بغتة والاستيلاء على إماراتها الثلاث: إمارة خوقند سنة ١٩١٨م وإمارة خيوة سنة ١٩١٩م وإمارة بخارى سنة ١٩٢٠م[١].

هذا وقد بدأت السلطات الروسية فى فرض الفكر الشيوعى الإلحادى بأن أصدرت مرسوما فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٨م حول فصل الدين عن الدولة وكان هذا المرسوم مكملا للمرسوم الصادر فى ٢٠ / ١ / ١٩٨٩م حت عنوان «حول حرية المعتقدات والضمير والمنظمات الدينية» وقد كان العديد من أحكام هذا المرسوم مستحيلة التحقيق بسبب الخصائص المحلية والدينية بتلك المناطق حيث إن الإسلام كان منتشرا انتشارا تقليديا وتاريخيا فى هذه المناطق، وكان أهم الأحكام فى هذا المرسوم هو ذلك الذى نص على فصل الدين عن الدولة فقد كان ذلك يعنى إبعاد المنظمات الدينية عن أى رأى أو مشاركة فى شئون الدولة وتم إلغاء حلف الدين حسب الأصول الدينية وإلغاء الأحكام الشرعية فى الزواج والدفن وغيره[٢].

ولقد دعا لينين والحزب الشيوعى كل الشيوعيين والمنظمات الحزبية إلى العمل فى هذا المجال الحساس، آخذا بعين الاعتبار مفهوم التطور الاجتماعى والخصائص المحلية ومدى تأثير الدين على بناء هذه البلاد.

---

(١) نصر الله مبشر الطرازى، تركستان ماضيها وحاضرها - مرجع سابق، ص١٣

(٢) أحمد رائف - المرجع السابق، ص١١٢

ورغم كل ذلك لم تنجح السلطات السوفيتية فى القضاء على الهوية القومية أو إضعاف التقاليد الأوزبكية المستمدة من الإسلام، ليس فقط كدين للتعبد بل كمنظور اجتماعى وحضارى وثقافى، ولا يمكن تفسير هذا الصمود الأوزبكى أمام حملات الترويس الثقافى والفكرى إلا بالاعتماد والتركيز على الدور الذى قامت به الجماعات الصوفية وعلماء الدين الأوزبك، وقد قدر لهذا الدور النجاح نتيجة استعداد ورغبة الشعب نفسه فى التمسك بتعاليم دينه وتقاليده الموروثة، وقد تجد ذلك فى حرص قطاعات واسعة من الأوزبك فى المناطق الريفية والحضرية على التمسك بعاداتهم الخاصة والمستمدة من تعاليم الإسلام مثل: الزواج - الختان - الجنازات - الدفن - والاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية والمجاملات الاجتماعية(١).

ويلاحظ أن الهوية القومية الأوزبكية قد ارتبطت إلى حد ملحوظ بالعادات والتقاليد الإسلامية إلى الحد الذى امتزجت فيه الهويتان القومية والإسلامية فأصبح البعد القومى مثل البعد الدينى والعكس فالحفاظ على العادات والشعائر الإسلامية فى الحياة الاجتماعية كان يمثل التزاماً وأيضاً رغبة فى إبراز الفوارق الفاصلة بين الأوزبك وهم أهل البلاد الأصليين والوافدين السلاف على بلادهم.

ومن أبرز الدلائل على قوة الروح القومية الأوزبكية خلال حكم المرحلة السوفيتية هى تمسك الأجيال الأوزبكية الشابة التى نشأت فى ظل النظام الشيوعى بهويتها القومية والدينية فبالرغم من تعرض هؤلاء الشباب منذ الصغر للنموذج الثقافى الشيوعى السوفيتى إلا أن الدلائل تشير إلى تمسك هؤلاء الشباب بجذورهم القومية والدينية.

وقد فشلت كل الحملات الدعائية المضادة للدين فى القضاء على حماسة الشباب الأوزبكى للعودة إلى جذورهم من جديد.

ومن العوامل الرئيسية فى الحفاظ على الهوية الإسلامية فى أوزبكستان ودول آسيا الوسطى هو نشاط الجماعات الصوفية والتى مثلت المحور الرئيسى والأساسى فى الحفاظ على الإسلام وهويته(٢).

وتنتشر هذه الطرق الصوفية فى بلدان وسط آسيا بصفة عامة وفى أوزبكستان بصفة خاصة، ومن الجدير بالذكر أن الطرق الصوفية فى الجمهوريات الإسلامية

---

(١) محمد السيد سليم - المرجع السابق، ص١٤٢

(٢) هدى درويش - مرجع سابق، ص٣٤-٣٧

المغتصب الروسى، الذى أقر بخطورة حركة البصماجية على النظام الشيوعى ولذا فقد حاول تهدئة الشعور العام لدى سكان المناطق، وتخفيف الضغوط والقرارات التى تمس الحياة الدينية لهم، وفى أغسطس ١٩٢١م تقدم أحد قادة الحركة فى وادى فرغانة للسلطات السوفيتية نيابة عن قائد الحركة، يقترح بدء المفاوضات مع السلطات السوفيتية حول وقف الصراع مقابل الحفاظ على حرمة الشريعة الإسلامية والمؤسسات الدينية التعليمية والمساجد وإعادة المحاكم الشرعية والأوقاف، ورغم أن السلطات السوفيتية رفضت هذه الشروط إلا أنها كانت تعبر عن مطالب ورغبات أهل تركستان جميعا.

وفى ١٨/٥/١٩٢٢م اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى قرارا حول القضايا التركستانية البخارية تتضمن تهدئة الجماهير، وبدأ تطبيق قانون بالعفو عن حركة البسماتش «البصماجية» وتم إعادة المحاكم الشرعية وفتحت المساجد والمدارس الدينية وتم إعادة أملاك الأوقاف، إلا أن السلطات الروسية بعد أن أعادت الهدوء لتلك المناطق قد عادت لسابق عهدها فيتنفيذ قراراتها التعسفية وغير الإنسانية.

ورغم أن كل هذه الأعمال السوفيتية مع سكان المناطق التركستانية كانت تدور بين المد والجزر فى تطبيق القوانين التعسفية والمقاومة للدين وبين تيسيرها وعدم تنفيذها أحيانا إلا أنه فى كل الأحوال كانت حركة المقاومة الشعبية كانت تمثل إحدى الركائز المهمة للحفاظ على الهوية القومية والدينية وليس لأهل بخارى فقط بل لجميع مواطنى وسكان آسيا الوسطى[١].

ولهذه الأسباب والأسباب الأخرى كانت أوزبكستان تمثل بؤرة الاهتمام من القيادة السوفيتية فحين لجأ ستالين بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية إلى تقديم تنازلات بعضها ثقافى وبعضها دينى وهى بالطبع محدودة لمسلمى آسيا الوسطى وأوزبكستان بصفة خاصة، فإن خروشوف كان شديد التعنت فى مواجهة رغبة الأوزبك فى التاكيد على جذورهم الإسلامية، وأفرط أثناء فترة حكمه فى تركيز حملات الدعاية الإلحادية فى آسيا الوسطى عموما وفى أوزبكستان بصفة خاصة بسبب دورها القيادى بين دول آسيا وكافة الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى.

---

(١) محمد السيد سليم - المرجع السابق، ص١٤٠

وتاريخها الحضارى، والتنويرى، والدينى، والحضارى بل أصبحت المدارس والجمعيات الدينية، والمساجد فى أوزبكستان تمثل قلعة الفكر الدينى لبلدان المنطقة، وأصبحت المقاومة الأوزبكية تمثل القيادة، والرمز لحركة المقاومة التركستانية ضد المحتل الروسى، ومن ثم أصبحت أوزبكستان هى حصن، وقلعة الإسلام فى المنطقة، ولها الفضل فى حفظ الهوية الإسلامية، ومن ثم يبين دور أوزبكستان فى حفظ الهوية الإسلامية على مر القرون الماضية، فكانت ومازالت الدولة المحورية فى المنطقة، وهى التى تحمل لواء حفظ الإسلام، وتعاليمه السمحة، ومن ثم كانت أوزبكستان جديرة بالاختيار كنموذج للدراسة.

فى الاتحاد السوفيتى السابق كانت تمارس نشاطها بطريقة غير رسمية بل كانت تزيد من السرية خشية مطاردة الحكومة السوفيتية وبطشها السافر بمن يعتقد بمبادئ وتعاليم تلك الطرق ورغم ذلك كان لتلك الطرق تأثيراً عظيماً فى تمسك الشعوب الإسلامية بوسط آسيا بهويتها القومية والدينية.

والطرق الصوفية التى انتشرت فى أوزبكستان هى:

١- الطريقة النقشبندية(١).

٢- الطريقة الكبروية.

٣- الطريقة القادرية.

٤- الطريقة اليسوية.

والجدير بالذكر أن اوزبكستان رغم كل التحديات التى تحيط بها، كانت ومازالت هى أكثر جمهوريات آسيا الوسطى محافظة على الدين الإسلامى وتقاليده، وعاداته مثل الزواج، والختان، والجنازة، والدفن، وإحياء المناسبات الدينية والاجتماعية.

وكان أهل أوزبكستان يحافظون على إسلامهم ويقومون بالدعوة سراً إلى الله وإقامة الصلاة، وقراءة القرآن، وتلقين أولادهم مبادئ الإسلام، وتعاليمه بكل سرية(٢).

خلاصة القول

ونخلص من حصاد ما تقدم أن تاريخ أوزبكستان البعيد قد ارتبط بمجمل تاريخ منطقة آسيا الوسطى، وتؤكد ذلك الشواهد التاريخية المسجلة، إذ تمثل أوزبكستان القلب الجغرافى لمنطقة وسط آسيا، تلك المنطقة المهمة، التى دفعت كثيرا من القوى الخارجية للزحف عليها من خلال الثلاثية المعروفة مجازا فى التاريخ الإنسانى بثلاثية (الله - الذهب - المجد)، فبعض القوى جاءت رافعة راية الدين، والأخرى طمعا فى ثروات المنطقة، والثالثة طمعا فى مجد عسكرى وتاريخى، وهكذا أصبحت المنطقة محط أنظار واهتمام القوى الخارجية قديما وحديثا وأصبحت أوزبكستان تمثل قلب الرحى ومحورها، نظرا لتعدد سكانها،

---

(١) سبق أن تم التعريف بهذه الطرق بصورة مفصلة.

(٢) أحمد رائف - المرجع السابق، ص٣٠

الفصل الثالث

المبحث الأول

التأثير الأيديولوجى الروسى من الناحية الدينية - الاجتماعية - السياسية

يتناول هذا الفصل بيان مدى التأثير الأيديولوجى الروسى على الشعب الأوزبكى من الناحية الدينية، وهل استطاع الفكر الشيوعى التأثير على الفكر الإسلامى للشعب الأوزبكى رغم تدخل السلطات الشيوعية فى كافة نواحى الشعب الأوزبكى، وهل التدخل الشيوعى بات له تأثير من الناحية الاجتماعية والسياسية، ثم تناول هذا الفصل وضع أوزبكستان كدولة محورية لبلدان وسط آسيا الإسلامية، وحملها راية التحديث والتطوير والتنوير.

أولاً: التأثير الأيديولوجى من الناحية الدينية:

يوضح هذا المبحث أن الشعب الاوزبكى، المسلم قد تعرض خلال فترات الاحتلال الروسى لحرمان المسلمين من أبسط الحقوق الدينية فلم يسمح له بدخول المساجد أو قراءة القرآن أو إجراء مراسم الزواج طبقاً للشريعة الإسلامية أو إجراءات الجنازة، والدفن، أو الاحتفال بالأعياد، والمناسبات الدينية بل لقد زاد الأمر قهراً، حتى إن المسلمين أصبحوا مضطهدين لمجرد أن الاسم إسلامى.

ولذا قد تدخلت السلطات الشيوعية، فى كل نواحى الحياة للمواطن المسلم حتى الأسماء تم إضافة الحروف للاسم الإسلامى حتى لا يصبح إسلامياً خالصاً مثل: (عبد للايف - محمدتش).

وقد تعرض الشعب الأوزبكى بصفة خاصة لمزيد من الاضطهاد، من السلطات الروسية، وذلك لأسباب سيكولوجية، ففى أوزبكستان ظهرت المقاومة الشعبية (البصماجية) إضافة إلى أنها تحمل التراث الإسلامى، والحضارى الذى يعبر عن الشعوب التركستانية إضافة إلى أن عدد السكان فى أوزبكستان ٢٥ مليوناً يمثل المسلمون ٨٢٪، من السكان وجميعهم سنة، وعلى المذهب الحنفى[١].

---

(١) نصر الله الطرازى - مصدر سابق، ص١٨٧

الباب الثالث

أوزبكستان نموذجًا

الفصل الثالث

التأثير الأيديولوجى للروس على أوزبكستان

المبحث الأول : التأثير الأيديولوجى من الناحية الدينية، والاجتماعية،، والسياسية.

المبحث الثانى : أوزبكستان بين الماضى والحاضر.

وقد لعبت الطرق الصوفية المنتشرة فى أوزبكستان دوراً مهما للحفاظ على تعاليم وسلوك، وهوية الدين الإسلامى، وهذه الطرق تمثل صمام الأمان العام لحفظ الإسلام فى نفوس اتباع تلك الطرق والتى ينتسب إليها أغلب سكان أوزبكستان المسلم(١).

وظل الأوزبكيون يؤمنون بالغيبيات وبالملائكة، والجن، والشياطين، وينسبون إليها معظم الأحداث المهمة، ويربطون ذلك بالمعتقد الدينى، ولذا فكانوا أشد ارتباطا بالطرق الصوفية.

وأهل أوزبكستان يتوافدون لأداء فريضة الحج برغم كل هذا الحصار الشيوعى كان هناك بعض الأوزبك يؤدون الحج بطريقة أو بأخرى وإن كانوا قليلين للغاية، ولكن كانت فريضة الحج تمثل لهم ركنا أساسيا ومهما فى حياتهم الدينية.

ورغم كل هذا الجبروت الشيوعى، والممارسات القهرية ضد مسلمى الأوزبكستان فكان هذا الشعب المسلم يواظب على تأدية الشعائر الدينية المهمة مثل صلاة الجنازة، ومراسم الدفن، والكفن، والغسل، وكل ما يؤدى للميت بطريقة شرعية، وكان ذلك يتم فى القرى، والمدن على السواء، ومنها كذلك كتابة الآيات القرآنية على المدافن، وكتابة اسم المتوفى، وتاريخ الوفاة، وهى عادة اجتماعية دينية لم تتغير مع الزمن.

وهكذا نجد أن الإسلام ظل محفورا فى صدور أهل أوزبكستان، على طوال الفترات المريرة وحين مَنَّ الله على أوزبكستان بالاستقلال فى سبتمبر ١٩٩١م تسابق الجميع على إظهار إسلامية الشعب والنظام وإن الإسلام هو دين الأجداد فنجد أن رئيس الدولة حين أقسم اليمين وضع يده على المصحف الشريف والأخرى على الدستور وأقسم بالله الحق على احترام الدين والدستور وإرساء قواعد الديموقراطية(٢).

وخلال الفترات القليلة التى أعقبت الإستقلال تم فى البلاد تحقيق إنجازات كبيرة وعظيمة فى المجال الدينى منها(٣):

١- ينص دستور جمهورية أوزبكستان على أن المنظمات والاتحادات الدينية مفصولة عن الدولة، ومتساوية أمام القانون، وأن الدولة لا تتدخل فى شئون الاتحادات الدينية.

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام - العدد التجريبى الأول - مرجع سابق، ص١٣٩

(٢) إسلام كريموف - أوزبكستان على طريق الانبعاث الروحى - مرجع سابق، ص١٣

(٣) المرجع السابق، ص٧١

وأن أوزبكستان تضم فى جنباتها العديد من المدارس الدينية، ومراكز الإشعاع الثقافى الدينى، وظهر فيها معظم علماء الإسلام القدامى، والمحدثون، وهى تمثل مركز الدائرة بالنسبة لجمهوريات وسط آسيا الإسلامية، ولكن بعد سيطرة السوفيت على البلاد، أصبحوا تحت وطأة العلمانية التى كانت منهج الدولة، أبطلت الشريعة الإسلامية، وكذلك المدارس الدينية، وأغلقت المدارس، وأحرقت المصاحف، والكتب الدينية[1]، ومنعت الممارسة الفعلية للشعائر الدينية منعا باتا، واضطهد العلماء ورجال الدين، وأصبح كل فعل أو شكل أو انتماء إسلامى يعد مخالفًا للقانون.

وقد تحمل المسلمون الكثير من الذل، والقهر، والإبادة، والنفى لقبول الأفكار والمبادئ الشيوعية، واعتبرت موسكو أن المعركة الكبرى بين الفكر الاشتراكى، والفكر الإسلامى، وأصبح الصراع صراع أيديولوجيات، وقررت موسكو كسب المعركة، وإن كانت قد كسبتها بالفعل ونتيجة ممارسات أساليب القهر، ولكن كسبًا ظاهريًا فلم يستطع الفكر الاشتراكى الإلحادى أن يزحزح مسلم واحد عن عقيدته الإسلامية، والتى دأب المسلمون على إخفائها لتجنب أساليب القهر، والبطش الشيوعى.

وظل الإسلام راسخًا فى قلوب، وصدور المسلمين فى أوزبكستان، واصبحت الأجيال تتناقله سواء بتعلم الأبناء آيات القرآن أو الصلاة أو تعاليم القرآن السمحة، وظل المسلمون يحتفلون بالمناسبات الدينية مثل شهر رمضان، والأعياد باجتماع الأهل والأقارب، ولكن دون طقوس علنية خوفا من سطوة الشيوعية، وانتشار رجال السلطة والشرطة[2].

وقد حافظ المسلمون الأوزبك على الاسماء الإسلامية فالسواد الأعظم من الشعب يحمل أسماء إسلامية تركية لحفظ الهوية المتوارثة.

ورغم إخفاء الشعائر الدينية عن أعين رجال الشرطة السوفيت نجد أن المسلمين فى قطاعات الريف، والمناطق الجبلية تظهر المجاهرة بشعائر الإسلام، وطقوسه، وعلى وجه الخصوص الحفاظ على التقاليد الاجتماعية المرتبطة بالدين منذ زمن طويل فغالبا ما يتم ختان الأطفال فى احتفال كبير.

---

(١) احمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - المرجع السابق، ص٥٣

(٢) سلوى عبد الحميد لطفى - مرجع سابق، ص٣٦

جانب ذلك يدرس الطلاب الأوزبك العلوم الدينية فى عدد من المعاهد العالية والجامعات خارج البلاد. ومنها جامعة الأزهر الشريف.

٥- وقد ذُكر آنفا أنه يقطن الجمهورية الآن ممثلو الأديان المختلفة، ويسود بينهم الوفاق والسلام، وتقوم الدولة بالمحافظة عليهما أيضا، وذلك عن طريق تنظيم مؤتمرات وندوات دينية مختلفة وإجراء حوار بين الأديان. وعلى سبيل المثال عقد فى طشقند عام ١٩٩٥ مؤتمر إسلامى مسيحى مشترك تحت شعار «لنتعايش تحت السماء الواحدة». وشارك فيه ممثلون من المؤسسات الدينية الإسلامية والمجلس العالمى للكنائس وعدد من الكنائس الخارجية الأخرى(١).

٦- وقد تمكن المسلمون الأوزبك من ممارسة الشعائر والطقوس الدينية ومناسك شهر رمضان المبارك بحرية تامة وأعلن اليوم الأول من عيدى الأضحى والفطر المباركين يوما للراحة فى أوزبكستان ويعد إجازة رسمية للدولة(٢).

ومنذ الأيام الاولى للاستقلال تجرى فى شهر رمضان المبارك بجميع الجوامع والمساجد فى البلاد صلاة التراويح وختم القرآن الكريم. ويدعى إلى أوزبكستان بمناسبة هذا الشهر رجال الدين والحفظة والمقرئون من مختلف البلدان الإسلامية الذين يشاركون إخوانهم فى الدين فى أوزبكستان فى ختم القرآن الكريم.

مما يؤكد أن الثقافة الإسلامية وتقاليدها قد انتصرت فى معركة الصراع الأيديولوجى الذى أقامه النظام الشيوعى من خلال بث الفكر الاشتراكى ومحاولات طمس الفكر والهوية الإسلامية.

ففى خلال لقاء المؤلف مع أ.د. المرحوم/ نصر الله بشر الطرازى التركستانى الأصل وأستاذ اللغات الشرقية وآدابها فى الجامعات المصرية قرر سيادته أنه أثناء تواجده فى أوزبكستان عام ١٩٩٦ أى بعد الاستقلال تقابل مع فئات عمرية مختلفة خاصة شباب الجامعات، ونقل منهم وعنهم انطباعاتهم القوية فى التمسك بالدين الإسلامى ورغبتهم فى دراسة اللغة العربية والدين الإسلامى فى الأزهر الشريف، وأنهم يتمسكون بدينهم الحنيف وهذا الاتجاه يمثل الفكر والسلوك العام للشعب الأوزبكى، أما عن النخبة الحاكمة فهى تميل إلى تطبيق النموذج التركى العلمانى، وهذا الأمر سيخلق صراعًا خفيًا بين الشعب والنظام الحاكم ففى

---

(١) محاضرة صالح إنعاموف - سفير أوزبكستان بالقاهرة فى احتفال بمناسبة عيد استقلال اوزبكستان سنة ٢٠٠١

(٢) محمد السيد سليم - أوزبكستان الدولة والقائد - مرجع سابق - ص٦٢

٢- فى عام ١٩٩١م أقر فى أوزبكستان قانون «حول حرية الضمير والمنظمات الدينية» الذى غير دور المنظمات الدينية، ووضعها القانونى تغييرا نوعيا. وقد أعيد إلى المنظمات الدينية الحق فى الملكية مثل امتلاك المنشآت والمشاريع الاجتماعية والإنتاجية والخيرية والاموال النقدية كما منحت الحق فى التمثيل القانونى للمسلمين.

٣- وفى شهر آيار (مايو) عام ١٩٩٨م أقر «عالى مجلس» (البرلمان) لجمهورية أوزبكستان نصا جديدا لقانون «حول حرية الضمير والمنظمات الدينية». وجاء التأكيد فيه على أن المنظمات الدينية يمكن أن يرأسها كقاعدة مواطنو جمهورية أوزبكستان الذين سبق لهم وأن حصلوا على التعليم الدينى الخاص.

وقد تم إدخال التعديلات الخاصة على الوثائق التشريعية الأخرى أيضا، ومنح المواطنون وفقا للقانون الحق فى اعتناق الدين وأداء الطقوس الدينية ومناسك الحج على أساس فردى وجماعى.

ورغم أن دستور جمهورية أوزبكستان ينص على أن المنظمات والاتحادات الدينية مفصولة عن الدولة إلا أن الدولة بنفسها بادرت إلى توفير إمكانية أداء فريضة الحج.

وقدمت حكومة أوزبكستان للراغبين فى زيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة كل المساعدات الضرورية فى تسهيل الإجراءات المرتبطة بالوثائق وتنظيم الرحلات الجوية وحجز الاماكن فى الفنادق.

وافتتح في البلاد خلال ١٠ سنوات ماضية أكثر من ٢٠٠٠ مسجد وجامع، وكان عددها قبل الاستقلال لا يزيد على ٨٠ مسجدا فقط.

وتم إنشاء إدارة دينية تقوم بتنسيق أعمال جميع المساجد والجوامع إدارة المسلمين لأوزبكستان. ويرأس هذه الإدارة المفتى.

وتوجد لدى إدارة المسلمين مدرسة «مير عرب» الدينية بمدينة بخارى والمعهد الإسلامى العالى بطشقند، وللإدارة دار «ما وراء النهر» للطباعة والنشر التى تصدر مجلة «هدايت» وجريدة «إسلام نورى».

٤- وبهدف دراسة التراث الإسلامى الغنى ومؤلفات العلماء ورجال الدين البارزين أسس فى طشقند فى عام ١٩٩٥ مركز دولى للأبحاث الإسلامية، وإلى

أوزبكستان وذلك حماية للأسرة ونتيجة لحسن الاختيار وللتمسك بالتعاليم الدينية، ومن النادر كذلك الزواج من غير المسلمين إلا ما نصت عليه الشريعة وهو زواج الرجل الأوزبكى من غير المسلمة.

ويعتبر سن الزواج من التقاليد الاجتماعية التى يحافظ عليها المجتمع الأوزبكى، فكانت وظلت حتى الآن توجد هذه العادة وأن الفتاة تتزوج فى سن مبكرة فى القرى والمناطق الزراعية والجبلية، ولكن إذا كانت فى مراحل التعليم ينتظر حتى الانتهاء من الدراسة المتوسطة، وفى كل الاحوال تتزوج الفتاة فى سن سبعة عشر عاما تقريبا(١).

وبالنسبة للشباب فسن الزواج لا تتعدى اثنين وعشرين عاما، وهذا التقليد فيه حفظ للشباب من أى انحراف أو خطأ.

ومسألة تعدد الزوجات كانت غير منتشرة ليس بسبب شرعى بل لأن القانون السوفيتى كان يمنع الزواج بأكثر من واحدة، وعليه فحالات تعدد الزوجات كانت قليلة جدا ونادرة وإذا ما تمت تكون فى المناطق الريفية والجبلية بعيدا عن أعين السلطات الروسية.

ومن العادات الاجتماعية التى ظلت كما هى احترام المرأة لزوجها وبيتها، فالمرأة الأوزبكية تقوم بدور المدرسة لأولادها، وتقوم بخدمتهم بعناية فائقة وحب كبير وفى المقابل يبادل الأبناء الأم بكل توقير واحترام وتقدير(٢).

ومن العادات المهمة كذلك هى قيام الزوجة بترتيب البيت وتجهيز الطعام وانتظار قدوم الزوج من عمله بوجه باش وملابس نظيفة أنيقة وتقوم بترتيب الطعام ولا يبدأ أحد من الأسرة سواء الزوجة أم الأولاد بمد يده للطعام إلا إذا جلس الأب على المائدة، ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم فيقوم الجميع بترديدها ثم يبدأ الطعام، وعند الانتهاء من الطعام لا يقوم أحد من على المائدة إلا إذا انتهى الأب من الأكل ثم يرفع يده مبتسما قائلا وداعيا:

«الحمد لله الذى أطعمنا هذا وجعلنا من المسلمين» ويردده الجميع ثم ينصرفوا(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٢

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٤

(٣) نصر الله الطرازى محاضرات مسجلة مع المؤلف.

الوقت الذى تفرض فيه السلطة الحاكمة نظاما علمانيا معينا رأى أن الشعب يرغب وبقوة فى الرجوع إلى أصوله الدينية(١).

ثانيًا: التأثير الأيديولوجى من الناحية الاجتماعية:

من الثابت أن المجتمع الأوزبكى يشكل فى مجمله مجتمعا ريفيا إذ يعيش ٦٠٪من سكان الجمهورية فى القرى، والمدن الصغيرة والتى توصف بأنها قرى كبيرة نسبيا، وتمثل الزراعة المهنة الأكثر انتشارا فى البلاد، وتنتشر الصناعات المختلفة والتى يعمل بها جيل من الشباب، والملاحظ أن السلوك الاجتماعى لم يتغير كثيراً خلال فترات الاحتلال الروسى وقد تجلى ذلك فى العديد من نواحى الحياة.

فبالنسبة للزواج مثلا: نجد أن القانون السوفيتى كان يقضى بأن يسجل الزواج فى السجل المدنى المخصص لذلك فقط دون إجراء أى مراسم دينية، ولكن السكان كانوا يقومون بإتمام الزواج على يد رجل دين سرا حتى يكون زواجا شرعيا(٢).

وكانت العادات والتقاليد الاجتماعية تمارس كما هى، فكانت تقام سلسلة من الموائد لتقديم الطعام للمدعوين، وتقدم الهدايا وتتم الطقوس والعادات القديمة مثل الذهاب إلى بيت العروس لأخذها إلى بيت زوجها، وينتظر الاهل والأصدقاء خارج حجرة العروسين حتى يتم الزواج، وهذه العادة غالبا موجودة فى معظم البلدان الإسلامية، وكانت وظلت منتشرة وتمارس بطريقة عادية فى أوزبكستان، وسط حفلات السمر أو الغناء والموسيقى، وظل للأبوين رأى مهم ومؤثر فى اختيار الزوج أو الزوجة وهو سلوك دينى وتقاليد إسلامية مهمة حرصت الأسر المسلمة على اتباعها احتراماً لدور الأبوين فى المشاركة، لضمان حسن سير حياة أبنائهم الاجتماعية والأسرية رغم أن السلطات الروسية حاولت مراراً وبكل قسوة إجبار المجتمع الأوزبكى على التخلص من هذا السلوك وهذه التقاليد إلا أن كل محاولاتها باءت بالفشل الذريع إذ يعتبر من أهم أركان الزواج هو موافقة الوالدين على الاختيار وظل هذا السلوك والتقليد مستمرا حتى الآن.

ويعتبر كذلك من التقاليد الاجتماعية، ندرة الطلاق فالطلاق غير منتشر فى

---

(١) لقاء مسجل على شرائط كاسيت،مع المرحوم أ.د. نصر الله الطرازى.

(٢) أحمد رائف - مستقبل الإسلام فى روسيا وما وراء النهر - مرجع سابق، ص٢٠١

ورغم محاولات السلطات الشيوعية إزالة وطمس هذه العادات والتقاليد فى ارتداء الأزياء التقليدية التى تميز أهل اوزبكستان عن غيرهم، إلا أن هذه المحاولات قد تكون قد حققت بعض النجاح بنسبة بسيطة بين اهل المدن أو تلك الفئة التى انخرطت فى الفكر الاشتراكى، أما معظم أهل أوزبكستان وخاصة أهل الريف والمناطق الجبلية فظل محتفظا بهذا الزى سواء من الرجال أو النساء ومازال يستخدم باعتباره رمزاً للهوية القومية الأوزبكية إضافة إلى ذلك احتفاظ الشعب الأوزبكى بفنونه الغنائية وموسيقاه التى تغوص فى أعماق الماضى وتؤكد الهوية الأوزبكية فكانت وبحق إحدى الوسائل المهمة التى حافظت على الهوية الاوزبكية التى لم تؤثر فيها الثقافات الشرقية أو الشيوعية الأخرى(١).

ونخلص من حصاد ما تقدم انه لا تأثير للأيديولوجية الشيوعية على مسلمى أوزبكستان فى العادات والتقاليد الأوزبكية سواء الاجتماعية منها أم الإسلامية بل ظلت تمارس كما هى رغم قسوة النظام الشيوعى حيث إن هذه العادات قد أصبحت جزءاً من التكوين الوجدانى والنفسى لمعظم فئات المجتمع والتى تمثل السواد الأعظم فيه وهذا هو معيار النتيجة وإن كانت هناك فئة ممن انغمسوا فى الشيوعية ونظامها ليحققوا مكاسب مادية أو معنوية، فهذه النسبة لا تمثل معيارا أو مقياسا يمكن الاعتماد عليه إذ أن الثابت أن العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية والأسرية الأوزبكية ظلت كما هى تتحدى النظام الشيوعى بكل آلياته ومن ثم يمكن القول بكل ثقة إنه لا تأثير شيوعى أو فكرى على سلوك وعادات شعب أوزبكستان المسلم من الناحية الاجتماعية.

ثالثا: التأثير الأيديولوجى من الناحية السياسية:

إن الحقيقة التاريخية الممثلة فى خضوع روسيا لفترات طويلة للهيمنة الإسلامية بعد اعتناق القبائل التتارية للإسلام، وكذلك الحقيقة الجغرافية المتمثلة فى إحاطة روسيا بمناطق ذات أغلبية إسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز قد خلق جوا من الصراعات الدائمة تركت بعض الآثار السلبية فى العقلية الروسية، التى حملت مبكرا لواء التحدى الدينى وبأشكال مختلفة، وقد انعكس هذا الاحتكاك الدائم على القيم والمعتقدات السياسية لتلك الشعوب وعلى مواقفها الخارجية المشتركة معها فى الدين أى علاقاتها مع العالم الإسلامى.

---

(١) محمد السعيد سليم - نعمة الله إبراهيموف - إبراهيم عرفان - صالح إنعاموف - المرجع السابق، ص١٢